روايات عبير



فيوليت وينسبر

تناديه سيدي!

٩١

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 91

تنازل يا سيدي!

سألها: «ايمكنك مقاومة من يريدك؟».

فسألته بدورها: «ومن يريدني؟».

وعندها شعرت انها اصبحت ضعيفة كالماء بين ذراعي المركيز.

«انني هربت من كينث امام اصدقائه، كذلك عرف ريك اننا امضينا ليلة الضباب معاً... او هو عرف على الأقل انني كنت ليلتها مع رجل».

«الم تقولي له انني كنت ذلك الرجل؟».

«ما كنت لأستطيع، والا علمت الجزيرة كلها وتوقعت زواجك مني».

«اذا لم توافقي على زواجنا، فسأعمل على ان تعلم الجزيرة كلها، لأنني اريدك، ولأنك بالنسبة الي فتنة العالم كله».

احتجت قائلة: «وهل يتزوج المركيز من خادمة؟».

اجاب باعتزاز: «هذا المركيز يفعل تماماً ما يريده».

لبنان ٨ ل.ل.	الكويت ٧٥٠ ف	اليمن ٩ ر	السودان ١٠٠ م
سورية ٨ ل.س	الامارات ١٠ د	تونس ١ د	U.K. £1
الأردن ٦٠٠ ف	البحرين ١ د	ليبيا ٧٠٠ د	France F 10
العراق ٥٠٠ ف	قطر ١٠ ر	المغرب ٨ د	Greece Drs 150
السعودية ٩ ر	عمان ١ ر	مصر ٨٠٠ م	Cyprus P1

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
PILGRIM'S CASTLE

المراسلات
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١ـ مطر الغابات

دوّت صفارات الانذار، وذعر الركاب، وارتطمت زوارق النجاة بالماء. وانقلب احدها اثناء انزاله من جانب الباخرة المائل. وأحسّت ايفين بلغريم بلفحة هواء الليل، وبهبوط مفاجىء في جوف البحر. فغطى الماء رأسها وكاد يلفّها الى أن طفت على سطح الماء بفضل قميص النجاة الذي ترتديه.

كان ذلك اشبه بكابوس لا طاقة لها على الخلاص منه. وكان رأسها يمتلىء بصرخات هلع الركاب، ولكنها في الوقت نفسه راحت تتذكّر الموسيقى التي كان الركاب يرقصون على أنغامها في صالون الباخرة. نغمات حلوة عاطفية تابعتها ايفين بنقرات قدمها، وتاق معها قلبها الى رفيق يراقصها.

ولكن احداً لم يقترب منها اذ كانت تنزوي في صمت الى جانب مخدومتها، ونظارتها على وجهها، وشعرها معقود كالكعكة. كانت السيدة ساندل تقوم برحلة بحرية في الشواطىء المشمسة بناء على نصيحة طبيبها. وقد وقع اختيارها على ايفين لمرافقتها بعدما تأملت حاشية بيتها. وكانت ايفين تعمل لدى عائلة ساندل منذ كانت في الخامسة عشرة. أولاً كمربية للأطفال ثم خادمة ورفيقة للسيدة ايدا ساندل السريعة الغضب. وكانت احتياجات ايفين وأحلامها كفتاة في التاسعة عشرة بعيدة عن يدها وادراكها.

ومنذ بداية الرحلة توقعت ايدا من مرافقتها ايفين ان تلازمها باستمرار. وقالت لها بطريقتها الحادة الآمرة:

وأنت فتاة عاقلة وتعرفين مكانك وحدودك. فلا تتوقعي المشاركة في اللهو والمرح مع ركاب الباخرة الشباب، او السباحة دوماً في بركة الباخرة او الرقص والمغازلة».

وما كانت ايفين لتحلم بالوقوع في الغرام على ظهر الباخرة. ولكنها ودّت لو تتمتع بمشاركة من هم في مثل سنها ألعابهم على سطح الباخرة بدلاً من مطالعة جين اوستن لأجل السيدة ساندل. وودّت شيئاً من التغيير المبهج كأن تتنزه على سطح الباخرة برفقة أحد الشباب.

لم تجتلب هذه الفتاة الصغيرة ذات الثوب البسيط والنظارة التي تلازمها، انتباه اي فتى على سطح الباخرة. لعلهم افترضوا أنها خجولة للغاية، او انها تخشى رفيقتها مما قد يجعل صحبتها غير مثيرة. ولم يكن لديهم اية فكرة بأن تحت ثوبها غير الانيق يدق قلباً فتياً دافئاً يتوق للمغامرة.

مغامرة! لقد شعرت ايفين بتخدير حركة البحر وهي تطفو طوال الوقت متبعدة عن الباخرة المنكودة. شيء ما قد انفجر في غرفة محركها. وفي دقائق معدودة وبشكل جنوني غمرت المياه السفينة، كما غمرها دوي صفارات الانذار. الكل فوق سطح السفينة، والكل أخذوا اماكنهم المحدّدة لهم! وكانت ايفين اول الأمر هي التالية بعد السيدة ساندل التي ما عادت واثقة من شيء، وراحت في هلع اليائسة تمسك بحقيبة حليها وحقيبة يدها. وحين اصبح احد زوارق الانقاذ جاهزاً نحّت ايفين جانباً. وبسبب اندفاع الركاب غابت السيدة ساندل عن انظار ايفين. ولحظة انقلب الزورق تناهت الى سمع ايفين صيحة ربما كانت صيحة السيدة ساندل التي لم تعرف طوال حياتها غير التدلل. والآن يتقاذفها البحر الذي قد يقسو عليها.

طفت ايفين فوق الماء وعادت برغم دوارها تدرك انه لا توجد اجسام اخرى طافية تؤنسها. كانت صيحات ركاب الباخرة المنكوبة تتلاشى وراءها. وشعرت بصمت رهيب يلفها. ومع ان البحر كان يبدو خلال النهار أزرق دافئاً، فهو الآن بارد، وكأنّ الحياة كلّها تخرج من اطراف جسمها.

ودّت ان تغني او تصيح صيحة صغيرة حزينة في سكون الليل: «آه».

ولكن لا مجيب ولا سميع. ولكونها خفيفة الوزن حملها قميص النجاة بعيداً عن سمع الركاب الآخرين. سرعان ما تكون وحيدة تماماً وسط

المحيط بين ساحل اسبانيا الصخري وساحل افريقيا الشمالي.

يا له من امر مخيف. ان اندفاعها وحيدة في مياه غريبة اعاد اليها صور محنتها في السنوات القليلة الماضية حية من جديد. وأخذت الذكريات تتكاثر عليها. وقد صدق قول الناس، ان المرء حين يغرق يعود اليه ماضيه حياً.

جاءت من مكان في سومرست يدعى كومب سانت بليز. وكان هناك بيت فوق الأرض يسمى الملاك الاسود اعتادت يوم كانت طفلة ان تلعب حوله وتجمع الزهور البرية لتحملها الى الكوخ الذي تعيش فيه مع ابيها حارس الطيور، فامها ماتت بعد ولادتها. وقد احبت هي والدها، الرجل القوي البنية بشعره الاحمر الداكن، والذي كان يعنى بطيور متنزه عائلة ساندل الواسع حيث البيت الريفي.

وهي تعلم انها من اقارب آل ساندل من ناحية أمها، ولكنها قرابة بعيدة، وكانت احياناً تسمع مبكراً صوت ابواق الصيد حين يخرج رجال العائلة ونساؤها عبر اراضي الصيد لمطاردة الثعالب الحمراء. وبسبب الثعالب كرهت ايفين آل ساندل المتغطرسين غير الرحماء. وكانت تأمل ان لا تعمل ابداً في خدمتهم مثل والدها.

ما اعظم سومرست. هكذا كان يقول ابوها. لم تكن هناك زهرة برية لا يعرفها باسمها، ولا طير لا يمكنه تقليده.

ارتعشت ايفين في الماء كما سبق ان ارتعشت في الكنيسة يوم دفن والدها. كان كله حيوية. وفي يوم منحوس مات اثر رفسة حصان احد الصيادين. وصمت صوته الحنون الى الابد.

احدى الجارات ربطت لها شعرها، وهو في لون اوراق الخريف، بقوس اسود كبير. وكان ابوها يقول ان شعرها كمطر الغابات ناعم ورائع.

بعد الدفن لم تنعم الاّ بالقليل من اسباب الراحة. فهي مجرد ابنة حارس يتيمة. الاذرع الحنونة لم تعد تمتد اليها. خدّرها الحزن، وحبست دموعها في كيانها. نقلوها الى البيت الريفي، ووضعوها في غرفة صغيرة. وفي اليوم التالي بدأت تعمل في غرفة اطفال كان يشغلها طفلا ابن ايدا ساندل وزوجته.

كل شيء تغير بسرعة وبشكل محيّر. كانت ايفين قبل يوم حرّة تجوب

البرية. وبعده اخذت تتلقى الاوامر من آل ساندل. وبمرور بضعة اشهر في خدمة الطفلين، شرعت ايدا تستخدمها كخادمتها الخاصة. وعادت الى ذاكرة ايفين سهرة الصيد الراقصة، بعد عام من وفاة والدها. تذكرت وصول الضيوف في عطلة نهاية الاسبوع، والساعات الطويلة التي كانت تقضيها في ترتيب شعر ايدا، ومساعدتها لها في ارتداء ثيابها، وسماع الموسيقى تنساب الى الرواق حيث تجلس عند السلم المؤدي الى العلية، وتذوب في احلام مستحيلة.

كان في امكانها ان تهرب وتمارس عملاً ما في المدينة، ولكن ماذا تعرف غير حمل صواني الشاي، واصلاح الثياب، والمشي مع كلاب ايدا وتأمين قصصها ودعك قدميها.

كان في امكانها ان تهرب. . . وقد هربت الآن. . . جرفها البحر وهي في قميص النجاة اشبه بحطام سفينة، تكاد تموت برداً وذعراً، والظلام يزحف حولها. وضاعت نظارتها التي كانت ايدا ساندل تصرّ على انها ضرورية لها. وانطلق شعرها من عقدته المحبوكة في مؤخرة عنقها. والتصق ثوبها الصوفي بجسمها النحيل. وشعرت بالدوار كطفل استبد به النعاس.

ترى هل يغشاها النوم الأبدي الذي لا صحوة منه؟ وهل ستحظى ثانية بشبح الفارس الطويل القوي يضمها بين ذراعيه ويقول لها انها ستصبح اميرة في قلعتها الخاصة؟ وبينما الامواج تغطيها تساءلت هل سيكون ذلك مؤلماً؟ لم تسمع في الليل غير دقات هي بالتأكيد دقات قلبها ترن في اذنيها وتشتد. وفجأة اصبح كل شيء مجرد امواج تطوقها في مثل بياض البرق.

صرخ احدهم. . . وامواج اخرى كثيرة تغطيها وتخنقها، ثم. صوت لطمة على الماء تقترب منها، ويدان من حديد تطبقان عليها، ولغة لم تستطع فهمها. واحست برجل يمسك بها وهي تتعلّق به كأنه صخرة في البحر المضطرب.

استيقظت ايفين فيما بعد لتجد نفسها متدثرة باغطية في مضجع حجرة صغيرة. كانت ترقد مذهولة وتشعر بحركة الزورق، وبدفء جميل يسري في اطرافها. وكان معنى هذا انها في امان ولم تغرق.

واتسعت عيناها حينما انفتح باب الحجرة ودخل رجل يرتدي قميصاً

صوفياً سميكاً عالي الرقبة. كان نحيل الوجه اسمر البشرة. اقبل ناحية المضجع وانحنى فوقها وتأمل وجهها بعينيه السوداوين وسألها بالاسبانية عن حالها.

لم تفهم قوله ابتسمت له. انه الشاب الذي انتشلها من البحر وانقذها. وبكل امتنان قالت: «شكراً لك».

ابتسم لها كذلك وتركها تستريح من محنتها. كان وسيماً قوي البنية كأنما [illegible] بجنبه. وادركت ان فارسها البحار المنقذ اسباني لطيف.

وصل الزورق الى الميناء مع طلوع الفجر. وقدّم لها البحار ابريق قهوة ساخنة وقميصاً صوفياً وبنطلوناً من الجينز. وما ان ارتدتها حتى كانت الشمس تنفذ من كوة الحجرة. وبنظرة الى الخارج تبينت ايفين رسوّ الزورق عند شاطىء اشبه بحاجز رصيف ناتىء. كما تبينت أنّ الرائحة التي تفوح في الهواء هي رائحة اشجار صنوبر عالية قريبة من الشاطىء. صعدت سلماً ضيقاً الى سطح الزورق. كان زورق صيد بمحرك آلي، التصق برصيف الميناء الحجري. وكانت على الرصيف فتاة تداعب نسمات الصباح أطراف شالها الذي غطت به رأسها، تحملق بالزورق عندما قفز منه منقذ ايفين واحتواها بين ذراعيه. تعلّق كل منهما بالآخر، وراحت ايفين تراقبهما وهي تحس بشعور الوحدة ينتابها.

انتظرت ايفين بضع دقائق، ثم مشت فوق الزورق باتجاه الرصيف حيث امتدت اليها يد الشاب القوية. كان شعرها قد جفّ ولمع من اثر الملح وانسدل على كتفيها، وقميصها المستعار يتدلى فوق الجينز، وبدت كشريرة عصفت بها الأمواج.

تطلعت اليها المرأة ذات الشال بفضول. كانت جميلة وسمراء كالشاب البحار. وابتسمت ايفين عندما قدم لها المرأة ببساطة قائلا بالاسبانية: «زوجتي ماري ليزه».

الآن بعد زوال الدوار فهمت ايفين قوله، اذ عادت تتذكر بعض الكلمات الاسبانية التي تعلمتها مع ايدا ساندل. وابتسمت شبه ابتسامة حين ادركت ان فارسها المنقذ رجل متزوج سعيد!

رافقت الزوجين الى بيتهما القائم بجدرانه البيضاء وسط اشجار الصنوبر. وهناك كان طفلهما ينام في سريره، غير بعيد عن اكواز الصنوبر

والخشب المشتعل في المدفأة. وتحدثت ماري ليز مع زوجها، فاستأذن وخرج من المطبخ.

سمعتها ايفين تقول لزوجها: «امريتو اتصل بالسيد الكبير». وتطلّعت ايفين الى ماري ليز التي كانت تعد المائدة وسمعتها تقول ثانية:

«السيد الكبير، حدثه يا امريتو عن السيدة الانكليزية، افهمت؟».

يبدو ان امريتو على وشك ان يسلمها الى سيد كبير في هذه المنطقة. تأملت ايفين الطفل النائم في مهده باعجاب، واكلت البيض المقلي الذي اعدته لها ماري ليز. وكانت تتناول فنجان قهوة حينما عاد امريتو وافهمها ان سيارة ستأتي لتنقلها الى قصر السيد الكبير.

نظرت ايفين من النافذة وتساءلت: «اين انا؟ اي جزء من اسبانيا هذا؟».

اخذت ماري ليز تهدهد ابنها بين ذراعيها، وتركت لزوجها الشاب مهمة الاجابة. وعلمت ايفين بشيء من الذهول والذعر انه جيء بها الى جزيرة على الساحل الاسباني تدعى، جزيرة دي ليون.

وما ان استوعبت الحقيقة المذهلة، حتى سمعت صوت سيارة تتوقف خارج البيت. وفتح امريتو الباب وخرجت ايفين الى نور الشمس الذي كان يتخلل الشجر ويسطع على هيكل السيارة الرابضة هناك. سيارة ليموزين عليها شعار أسد فضي في مقدمتها وهلال على ابوابها. والتقطت ايفين أنفاسها. ان آل ساندل لم يركبوا سيارات مثلها. ولم يكونوا من الاهمية بحيث يكون لهم شعار نبالة.

برز من وراء مقود السيارة سائق في بدلة ملونة وفتح الباب. ابتسمت ايفين وهي تودع الزوجين وشكرت امريتو قائلة:

«انت انقذتني ولساني عاجز عن شكرك بما فيه الكفاية».

رد امريتو:

«في رعاية الله».

قبلت ايفين خصلات الطفل، وارتمت داخل السيارة الليموزين. شعرت بنعومة مقاعدها المخملية وامتلأت بالزهو. انها لم تحلم ابداً بأن تقذفها الامواج الى جزيرة وتركب سيارة يقودها سائق خاص. كانت السيارة مزودة ايضاً بسجادة تحت قدميها ووسادة خلف رأسها فجلست في

منتهى الراحة. واخذت السيارة تترك طريق الغابة وتصعد في طريق جبلي وعري.

واخيراً توقفت السيارة. وفتنها المنظر الطبيعي الخلاب ولمعان البحر الذي يلف جزيرة دي ليون. من يكون دي ليون هذا، ايمكن ان تكون جالسة في سيارته التي اخذتها الى قصره؟ كانت تسمع عن بعض النبلاء الاسبان الذين لا يزالون يعيشون كاللوردات الاقطاعيين في هذه المناطق النائية. زوجة البحار الذي انقذها كانت تسمي الرجل الذي استدعاها بالسيد الكبير.

فجأة امسكت ايفين مقبض باب السيارة الداخلي الفضي. واحست بطعنة من الشك والخوف. ارادت ان تطلب من السائق ان يعيدها الى عائلة امريتو الطيبة التي تعيش في كوخها الوديع، ولكن لغتها الاسبانية لا تسعفها، فهي لا تعرف غير كلمات وعبارات قليلة، وليس من بينها:

«اوقف السيارة، اريد الخروج هنا».

حدقت من نافذة السيارة، ورأت صخور الشاطىء وشجر الصنوبر والصمغ، ومسحة ذهبية تعلو الجبال البعيدة، وزرقة اخاذة لمياه البحر.

كان البحر الذي وقعت فيه في الليلة الماضية مخيفاً. اما الآن فهو اشبه ببركة مملوءة بياقوت ازرق. وحين نظرت الى المياه البعيدة لحظة زاد صعود السيارة الى اعلى التل، فكرت في حال مخدومتها ايدا ساندل. هل نجت؟ وهل ستسعى للاستعلام عن خادمتها ايفين بلغريم؟

ايفين تعرف ان اسمها الاول غريب. قال لها ابوها انه اختاره من كتاب حكايات خرافية. ولم تكن ايدا ساندل تحب اسم ايفين الخرافي، لهذا كانت تناديها دائماً باسمها العائلي. كانت تقول لها:

«دلكي رقبتي يا بلغريم، خذي الكلب الى الحديقة يا بلغريم...».

صحيح ان الرحلة البحرية الأخيرة بدت مثيرة. ولكن ما من شيء تغير بالنسبة الى ايفين على ظهر الباخرة، الى ان دوّت صفارات الانذار ومال قارب النجاة، ووقعت في البحر الذي قذفها قريباً من شاطىء تلك الجزيرة فانقذها البحار الاسباني الشاب.

جزيرة دي ليون. امتلأت عيناها العسليتان بالعجب. كيف لها ان تنسى الحكاية الخرافية التي اختار ابوها اسمها منها. ايفين كما تقول الحكاية

فتاة اعانها اسد في صراعها مع التنين!

حينما تمهلت السيارة في منعطف بالطريق الحلزوني، لمحت ايفين ابراج قلعة اشبه بقلاع القصص الاسبانية فاحست باشتداد دقات قلبها وهي تتأمل روعة المكان. كانت القلعة اشبه بسجادة ساحرة، ابراجها تشق عنان السماء الزرقاء المذهبة، وفوق احد الابراج يرفرف علم عائلي، والالوان الذهبية والقرمزية تنتشر مع الريح والشمس.

تنفست ايفين بهدوء. لم يكن حلماً لانها احست بالريح على خديها، وشمّت رائحة شجر الصنوبر وملح البحر في الهواء. لم يكن حلماً لان السيارة دخلت الى فناء القلعة. ورأت ايفين تمثال اسد حجري يعلو المدخل.

دارت السيارة حول بئر حجرية وسط الفناء، ثم توقفت اسفل سلم يؤدي الى بهو. ونزل السائق وفتح باب السيارة المجاور لايفين، فأسرعت بالخروج وراحت تتأمل السلم وشعار النبالة الذي يعلو البهو.

انها تدخل بيت اسرة اسبانية عريقة. ولا بدّ انه يحفل بالمحبة والاطفال.

قال السائق وهو يشير الى باب من الحديد المشغول في جدار الفناء: «اسمحي لي». وفتح البوابة ودخلت ايفين الى باحة مرصوفة بهرتها. خيّل اليها انها تمشي داخل لوحة، واحست انها بهذه الثياب الغريبة تبدو شاذة وسط الزهور العطرة التي تملأ الباحة حول النافورة، والورود التي تلتف حول اعمدة الممشى. قالت:

«ما احلى الزهور والورود!».

اجاب السائق بأدب:

«حقاً يا سيدتي. سيد القلعة رجل غني للغاية».

راحت تسير الى حيث يقودها السائق عبر باب زجاجي مفتوح على قاعة ثم نحو سلم فخم من الرخام والحديد المشغول.

توقف السائق امام باب مزدوج من الخشب المحفور. وطرق الباب مستأذناً وامسك بالمقبض البرونزي وفتحه تاركاً ايفين تدخل الغرفة وحدها.

وقفت ايفين مشدوهة عند العتبة تتأمل اثاث الغرفة الكلاسيكية وسقفها وجدرانها المكسوة بالواح الخشب البنية اللامعة. وكانت على الجدران

لوحات اسبانية ذات اطارات مذهبة. وكذلك سجادة حريرية عليها صورة للعذراء والطفل.

خطت خطوة الى الأمام. وفي الحال انغلق الباب وراءها واتسعت حدقتاها حين تركزتا على السيد الطويل القامة الذي وقف ينظر اليها عند احدى النوافذ. كان يدخن سيكاراً رفيعاً، وبدت لها ملامحه كالنسر وعيناه لامعتين باردتين. وكانت عظام خديه تضفي على وجهه مسحة شيطانية، وانفه الكبير يتناسب مع فمه المهيب. وقف بلا حراك قبالة النافذة ذات الزجاج الملون، يلفه السكون ودخان سيكاره. وشعاع من الضوء الياقوتي يتلاعب فوق شعره الاسود الكثيف الذي تتخلله بضع شعرات فضية.

كان اسبانياً مرموقاً فيه نبل وتحفظ وحزن. يرتدي ثياباً حيكت بمنتهى الدقة، مما زاد في شعور ايفين بغرابة ثيابها.

اخذ السيد يقيّمها من رأسها حتى قدميها. وتعقّدت اصابعها بعصبية فوق بنطلونها الجينز الذي طوت ساقيه من فرط طولها. وانبهرت لعظمة الرجل وفخامة محيطه. ولم تجد في تلك اللحظة، الشجاعة لتفتح الباب وتلوذ بالهرب من عينيه العميقتين وفمه الذي لا يعرف الابتسام على ما يبدو.

«انت الفتاة التي انقذها امريتو من المحيط؟».

«نعم».

قالتها وقد انخلع قلبها من الاثارة. ومع انها كانت تعلم قبل ان يتحدث ان صوته سيكون عميقاً ومغناطيسياً، فانها لم تكن تعرف انه سيحدثها بانكليزية صحيحة تماماً مع لكنة اسبانية. كان صوته ساحراً قوياً كنظرته.

«ما اسمك؟».

«اسمي... اسمي ايفين بلغريم يا سيدي».

اشار الى كرسي مخملي عالي الظهر وقال:

«اجلسي لنتحدث».

سرها ان تجلس قبل ان تخونها ساقاها. كانت ترتعش. لم تشعر ابداً في حياتها هكذا.. بالتأكيد هذا هو الخوف من اول نظرة!

ابتعد عن النافذة، ولاحظت انه يمشي مستعيناً بعصا سوداء، وان ساقه اليسرى ليست على ما يرام. وعندما وصل الى المدفأة التي يعلوها شعار

عائلته انحنى انحناءة بسيطة وقال بصوت عميق يفرض الطاعة:
«انا دون جوان دي كونك واراندا، المركيز دي ليون».
شعرت بالاغماء بعد سماع اسمه الرنان. هو اذن مركيز الجزيرة، لورد اقطاعي يحكم من قلعته، ولعلّ كلمته هنا هي القانون.
«عندنا مثل يا آنسة بلغريم يقول: الاسباني قد يجرحك ولكنه لن يسلخ جلدك على الفور. لا تنظري اليّ بمثل هذا الاضطراب!».
زاد اضطرابها عن قبل اذ اصبح الآن على مقربة منها وقد تركزت عيناه على وجهها وعلى فمها الذي لم يمسه رجل.
سألها:
«الا يعجبك بيتي يا آنسة؟ كثيرون يجدونه جميلاً ببرجه البحري، وبساتين لوزه، ونافورة باحته».
اجابته:
«بيتك قلعة يا سيدي».
كرر بسخرية:
«بيتي قلعة». وسأل: «الم تدخلي قلعة من قبل؟».
اجابت ايفين وقد خفضت ذقنها:
«كلا يا سيدي. ماذا تفعل مرافقة مثلي في قلعة؟».
لمس باصبعه الورود المنسقة في مزهرية ذهبية فوق المدفئة الرخامية. وامتزج عبير الورود برائحة دخان سيكاره. وقال:
«حقاً، ماذا تفعل؟» واستطرد سائلاً: «كم عمرك يا آنسة بلغريم؟».
جلست مبهوتة، فسؤال كهذا لا يسأله رجل من مواطنيها على هذا النحو المباشر. وقطب هو جبينه، وتذكرت انه اذا سأل المركيز دي ليون سؤالاً فعليها الاجابة بدون تردد، بغض النظر عن خصوصية السؤال.
«في التاسعة عشرة يا سيدي».
«حسبتك اصغر».
واخذت عيناه تفحص قوامها النحيل في الثياب الفضفاضة التي اعطتها اياها امريتو. وابتعد عن المدفأة وعرج تجاه طاولة صغيرة فوقها صحن عنب حباته كاللهب. واخذ الصحن وناوله الى ايفين. وقال:
«انت صغيرة ويحسن بك ان تكثري من الفاكهة».

وارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة واضاف:
«انها من كروم القلعة».
كانت حبات العنب لذيذة، ولكن ايفين شعرت بالخجل بسبب العينين السوداوين اللتين تتطلّعان اليها وقد تناولت ثلاث حبات او اربع. سألها وقد وقف امام صورة العذراء وهو يتكىء بشدة على عصاه:
«هل اطعمك امريتو؟».
لاحظت ايفين ان ساقه تؤلمه، وان فمه الجميل يعلوه حزن يقربه منها.
«زوجته قدمت لي افطاراً يا سيدي... كان مصيري الموت لولا امريتو».
قال وهو يتأملها من خلال دخان سيكاره:
«اهدأي. كان شيئاً لا يصدق بالنسبة اليك. كان كابوساً وعليك نسيانه».
«كان الناس يصرخون والسفينة تغرق!».
«ولعل كثيرين منهم قد نجوا مثلك».
«كنت اسافر كمرافقة للسيدة ساندل. واتساءل...».
«واذا كانت هي ايضاً قد نجت؟».
«نعم يا سيدي».
قالت ايفين ذلك وقد اتسعت عيناها من الأسى. صحيح انها لم تشعر ابداً بمحبة كبيرة لسيدتها، ولكنها عرفت تجربة الغرق في المحيط المظلم والخوف يزحف الى قلبها.
«سأطلب الاستفسار عنها». ثم نظر اليها واستطرد: «اتودين العودة اليها اذا كانت قد نجت؟».
«كلا!»، انطلقت الكلمة قبل ان تتمكن من كتمانها. «أظن انه يتوجّب عليّ ذلك... فلا شيء لديّ، لا ثياب ولا مال».
«وهل تفضلين البقاء هنا؟».
لم تصدق ايفين انها سمعت العبارة صحيحة، ولكنها في لمح البصر وكأنما هزّها انفجار قنبلة ايقنت انها سمعتها بوضوح تام. وتطلعت اليه في حيرة لتفهم دعوته. هو مركيز وهي مجرد مرافقة. اتراه يعرض عليها وظيفة خادمة في القلعة؟ فسألته بصوت خافت:

«اتسمح لي بالعمل هنا يا سيدي؟».
مرة اخرى ارتسمت الابتسامة المقتضبة على شفتيه وقال:
«كلا يا آنسة، انا ادعوك للبقاء هنا فترة. ان خدمي كلهم من الرجال باستثناء مديرة البيت».
«ولكن...».
رفع حاجبيه وقال:
«ولكن ماذا. كان واضحاً انك غير راغبة تماماً في العودة الى عملك السابق. الا تفضلين البقاء هنا في القلعة؟».
سألته وهي تشعر بشيء من العذاب:
«بأية صفة؟».
«بصفة ضيفتي يا آنسة بلغريم. اتظنين انك اثرت عواطفي؟».
انتابها الحياء، واحسّت بعينيه تتابعان سريان هذا الحياء من خديها الى شعرها الذي جعده البحر. طمأنها بسخرية:
«اؤكد لك انني لا امارس حق السيد على كل انثى تطأ الجزيرة. أنت فتاة مشردة وستمكثين هنا. هذا ما اراه».
استقرت ايفين في الكرسي المخملي الطويل الظهر، وبين يديها صحن العنب الذهبي كأنه قربان. ماذا عن عائلته؟ لن يسرها بالتأكيد ان تحل فتاة تعيسة مشردة ضيفة عليها؟
اتكأ على عصاه وأمعن النظر اليها كأنها شيء غريب في غير موضعه داخل هذه الغرفة الجميلة، الا ان شيئاً قد جذبه اليها، فسألها:
«ما هو الاعتراض الآن؟».
«ماذا تقول عائلتك؟».
«ليس عندي عائلة».
وفجأة اعتلت وجهه خشونة، وكأنما مست جرحاً كان يخفيه، واضاف:
«لا زوجة ولا اولاد عندي. في القلعة بعض القطط وكلب صيد كما ترين».
وضرب بعصاه قدمه اليسرى ثم قال:
«وها انذا اعرج كالشيطان».
وسرت قشعريرة في كيان ايفين. اجل انها احست من اللحظة الاولى

ان هناك شيئاً شيطانياً في هذا الرجل! سألته منزعجة:
«تعني انك ستكون مسؤولاً عني؟».
«سيكون ذلك شيئاً جديداً».
وقرع جرساً فضياً لاستدعاء احد حاشيته، وتابع:
«ارى ان الانكليزية لا تريد ان يطوقها احد بجميله، ولكن الجزيرة بعيدة جداً عن الارض الأم (اسبانيا) وعليك قبول ضيافتي، شئت ام ابيت».
«هذا كرم منك يا سيدي».
«كرم؟ انا عملي واسباني. بيتي بيتك!».
نظرت الى ما حولها من سجاد غني بألوانه اللامعة والى المزهرية الذهبية، وشعرت كأنها شحاذة بين يدي احد الملوك!
«كل الاجراءات اللازمة سيجري تنظيمها مع البوليس الاسباني».
قال ذلك ثم نظر الى الباب وهو ينفتح وتدخل منه امرأة. كانت متجهمة الوجه ترتدي ثوباً اسود، وقد تحدث اليها المركيز بسرعة بالاسبانية. وشعرت ايفين بالنظرة الباردة التي رمقتها بها المرأة.
«امرك يا دون جوان».
ثم انحنت وانسحبت من الغرفة. فقال:
«طلبت من مديرة البيت اعداد غرفة لك. اسمها آلما وستجدينها معينة».
نظرت اليه ايفين في حيرة. انه يتولى رعايتها كأنها هرة صغيرة وجدها عند عتبة بابه، ولكن ليس في تصرفاته اي شعاع من حنان. فهمست شاكرة باحساس العارفة بقلة حيلتها. لعله قد دعاها للبقاء لكي يدرس انطباعها عن قلعته. تمنت لو ان في مقدورها معارضته. قال:
«سترين البحر من غرفة نومك. انه بحر فاتن».
جفلت من وصفه للبحر بالفتنة. انها لم تنس بعد ان البحر جرفها في عتمته كحطام سفينة. ولم تكن لتنسى الخوف والوحدة.
سألها دون جوان وعيناه تطالعان خواطرها:
«أتفهمين لغتنا؟».
«عبارة من هنا وأخرى من هناك».

«يكفي القول انك ستفهمين الكثير قبل مغادرتك للجزيرة. وربما تسعدني وصايتي عليك».

اثارت فكرة الوصاية ايفين. انها وصاية الشيطان. وقفت وامسكت بصحن العنب ونظرت الى ثيابها في المرآة المعلقة على الحائط. وفجأة بدأت تضحك. واذا بالهستريا التي كتمتها تنطلق من كيانها فلم تكف عن الضحك. ورغم ضحكها، انسابت الدموع على وجهها. وأمرها المركيز بالتزام الهدوء. وبكت عندما رفع يده وصفعها متعمداً.

ارتعدت وتأوهت. واحست بالم خدها. ووقفت كطفل حزين، الدموع في عينيها والصفعة على وجهها. وكرهت المركيز من كل قلبها. قال لها بهدوء:

«لا هستيريا بعد الآن. عليك التصرف بوقار اتفهمين؟».

ذرفت الدموع من عينيها الواسعتين في سكون:

«لماذا؟ الم اقل اني كنت مجرد خادمة عند امرأة مدللة انانية».

امسك دقنها ورفع وجهها المبلل بالدموع لكي يتأمله ملياً بلا رحمة وقال:

«ايفين، لك اسم ساحر وعليك العيش في سحره».

اصابعه التي امسكت بذقنها هي ذاتها التي صفعتها. كان قاسياً فوق تفهمها، وقبل ان يسلمها الى مديرة منزله، اخرج منديلاً من جيبه وطلب منها ان تمسح عينيها وقال:

«غداً تنسين الباخرة الغارقة، اتفهمين؟ اذهبي واستريحي وستتحسن حالتك».

مسحت عينيها وشعرت بالتعاسة. ما اجمل ان تجد الفتاة في الازمات شخصاً حنوناً. ولكن ما ابعد ذلك الزمان الذي كان والدها يفيض عليها بحبه.

وفي هدوء اعادت اليه المنديل، فوضعه في جيب سترته المخملية السوداء. كان في يده اليسرى خاتم به ياقوتة واحدة حمراء. وكانت الياقوتة تتلألأ وسط سواد سترته. الوان شيطانية تناسب تماماً رجلاً على شاكلة المركيز دي ليون.

تبعت ايفين مديرة المنزل وصعدت السلم الدائري الى غرفتها، وعرفت

من الجدران والنوافذ المقوسة انها اعطيت غرفة في برج القلعة. وفتحت المديرة باباً داخلياً كشف عن حمّام يكسوه القيشاني المذهب والأخضر.

قالت مديرة المنزل بصوتها القاسي:

«هذا هو الجناح الخاص». ودلّت ايفين على صنبور الماء الساخن والبارد، وفتحت خزانة علقت بها المناشف وتحتها صابون واسفنجة. كان في احد اركان الحمّام مغتسلة من البورسلين. وادركت ايفين في الحال انها تنعم [illegible] في هذا الجناح من البرج.

وابتسمت مديرة المنزل التي [illegible] بدأها الابتسام. ووجدتها تنظر الى ثيابها بازدراء. وتذكرت ايفين غطرسة الخدم في بيت آل سانديل. قالت:

«حسناً، سآخذ حماماً».

وهمست المرأة الكلمات الانكليزية وقالت:

«ستجد الآنسة على السرير قميصاً وروباً. ان السيد المركيز امر باحضار ثياب للآنسة من البلدة».

وتعجبت ايفين:

«اهناك بلدة؟».

ورفعت آنا حاجبيها وقالت:

«بالطبع، القلعة منعزلة هنا ... ولكن على مسافة ستة اميال هناك محلات وفندق ومسرح. وبيوت كبيرة في ميناء بورتو دي ليون. واصدقاء المركيز لهم بيوتهم هناك».

ما اسعدني بمعرفة كون الجزيرة غير منقطعة عن المدنية تماماً! وامسكت ايفين بقطعة صابون كبيرة من زيت الصنوبر وتشممت رائحتها الذكية. ان الحمام ثم النوم في السرير الكبير بالغرفة المجاورة سيعيدان عافيتها اليها.

«هل تود الآنسة تناول فنجان شاي؟».

«بكل سرور، اذا امكن».

ومرة اخرى رمقتها آنا بنظرة مؤنبة، وقالت:

«لسنا من المتوحشين في هذه الجزيرة. منذ سنوات واحد افراد اسرة دي ليون يتولى الاشراف هنا. وامثال السيد المركيز هم من علية القوم».

وعلقت ايفين قائلة:

«ان المركيز يبدو محباً لطريقة حياته الخاصة».

«والاسباني عادة سيد في بيته، والمركيز اكثر من ذلك، فأمجاد عائلته مسجلة في كتب تاريخ اسبانيا يا آنسة».

ولم تشك ايفين لحظة في اقوالها. فتاريخ عائلته الاقطاعي مكتوب على وجهه، وعميق في دمه وعظامه. قد يكون كريماً ولكنه يستطيع ان يكون قاسياً ايضاً.

وقالت ايفين لكي تواصل الحديث:

«لا بدّ ان الجزيرة رائعة للغاية».

«تستطيع الآنسة ان ترى بعينيها، تعالي».

وقربتها آلما من احدى النوافذ المطلة على الخارج. وفي الحال، استطاعت ايفين سماع صوت البحر كأنه ريح في اغصان الاشجار العالية تتنهّد في قلق، وتهمس بأسرارها. واستطردت آلما:

«انظري الى البحر».

وتطلعت ايفين حيث اشارت آلما فرأت البحر بزرقته الفيروزية، والصخور الشبيهة بالابراج تعانقه باستمرار، وتستحم برغوته التي تتكاثر حيناً وتتلاشى حيناً آخر. وتطاير شعر ايفين بالهواء المالح الذي تجمع حول غرفتها، وشعرت كأنها هنا اسيرة الساحر الاسمر سيد القلعة.

كان صوت مديرة المنزل بالقرب من ايفين وهي تقول:

«البحر يهمس. وستسمعينه ليلاً، وسيبدو كصوت احد البشر. اعلمي يا آنسة انّ عروساً من آل ليون ماتت فوق هذه الصخور منذ زمن طويل».

التقطت ايفين انفاسها وابتعدت عن النافذة. والتقت بعيني مديرة المنزل ورأت فيهما كل معاني عدم الترحيب، والعزم على اثارة اعصابها.

«كانت صغيرة في مثل عمرك، ومن بلد غريب مثلك، وتميل الى المشي بمحاذاة صخور القلعة مع كلب صيد من نوع كانت الاسرة تحب دائماً تربيته. وقد جذبها الكلب بتقدمه الى حافة الصخور وبعدها غابا معاً».

هذا ما قالته آلما وهي تتجه الى الباب وتخرج قائلة:

«سآتي لك بابريق الشاي يا آنسة بعد الحمّام».

انغلق الباب بعد ابتعاد مديرة المنزل المتشحة بالسواد، وارتعدت ايفين بعدما تراءى اليها صوت البحر ودخلت الرياح من النافذة الخشبية محملة بنكهة الملح والرمل والزهر. ووجدت نفسها مسحورة بصوت غيبته

الصخور والامواج.

وألقت مرة اخرى نظرة فاحصة على غرفتها فوجدتها جميلة للغاية... واشبه بغرفة صممت لشخص جاد ثم غاب... او لامرأة لم تأت ولم تعش بها. كان السرير واسعاً وعليه اغطية جميلة مطرزة وعليها الحرف الاول لاحد الاسماء، والمصباح المجاور للسرير من الفضة والخشب المحفور كبقية الاثاث. وفي الغرفة مقاعد صغيرة مريحة وكرسي استرخاء طويل من ... وفوق ارضية الغرفة سجادة سميكة في زرقة البحر.

وقارنت ايفين بين هذه الغرفة وبين الغرفة التي كانت تشغلها لدى آل ستانتون، والتي غصّت ببقايا اثاث قديم من غرف البيت الاخرى.

وتراءى الى سمعها، وكما لو كانت غارقة في حلم، رنين اجراس كنيسة قريبة تختلط بصوت البحر.

«في خطوط كفك مفترق طرق»، هذا ما سبق ان قالته لها غجرية رومانية عجوز في معرض ساحة سانت بليز قبل اسبوع من سفرها مع ايدا ستانتون في الرحلة البحرية التي انتهت بكارثة. يومها كانت تتجول في المعرض بمفردها، وتستمع الى الضحكات السارة التي ترددها الفتيات الاخريات مع رفاقهن. وكانت تتمنى من اعماق قلبها ان تخبرها الغجرية بأنها ستلتقي على ظهر الباخرة بفارس احلامها.

والتقطت ايفين انفاسها وصورة الاسباني الطويل الاسمر غير المبتسم الذي قدم اليها المأوى الوقت تملأ عينيها. ولكنه ليس بالشاب الساحر في احلامها... لقد اخافها بوجهه الجامد وملامحه البارزة وعينيه الحزينتين وسطوته التي يجرها.

ان دعوته لها بالبقاء هنا سخرية منه... ولكن ترى اي شعور اثارته في هذا الرجل الذي يعيش وحيداً في قلعة البحر؟

٢ - رجل يشبه البرج

استيقظت ايفين مع طلوع الشمس، وكانت في غاية الراحة حتى انها نهضت من الفراش بعد لحظة واسرعت نحو النافذة الخشبية كي تتأمل محيطها الجديد. وكان قميص نومها واسعاً ينزلق من فوق كتفيها، وتطلعت من النافذة كطفلة خائفة.

بحر ازرق فيروزي، وجبال اسبانية بعيدة. وهذه الجزيرة اشبه بعالم مستقل بذاته. الآن وقد اراح النوم الطويل ايفين وحجب عنها قليلاً كابوس غرق الباخرة، شعرت بدافع لاكتشاف دنياها الجديدة.

وتأملت غرفة نومها وتذكرت قول مديرة المنزل بالأمس عن طلب ثياب لها من محل في البلدة التي تبعد عن الجزيرة ستة اميال. ان قميص الأمس الصوفي والسروال الجينز اختفيا، ودفعها فضولها للاندفاع نحو خزانة الثياب الكبيرة وفتحت ابوابها. كانت خاوية الا من بعض ثياب قليلة معلقة فأخذت تفحصها. ثوب قطني برتقالي، وآخر كتاني مخطط، وثالث حريري مزركش، واعجبتها تنورة خضراء وبلوزة ذات كشكشة واكمام واسعة اشبه بثياب الريف. ووجدت في علبة رقيقة مزينة برسوم الزهور بعض الثياب الداخلية. وسرعان ما اغتسلت ايفين. وارتدت التنورة والبلوزة. وبعد ذلك مشطت شعرها وكانت على وشك ان ترفع جديلتها الى اعلى على طريقتها السابقة، ولكنها تذكرت فجأة ان هذا ليس بيت ساتندل، وان المركيز دي ليون ليس مخدومتها السابقة.

وتركت ضفيرتها تنساب على كتفها الأيسر. ورأت صورتها في المرآة غريبة عنها. كانت عيناها بدون النظارة واسعتين اخاذتين. وبدت لطيفة

بثيابها الخشنة والزنار العريض في وسطها. وابتسمت، ثم تذكرت ان ايدا ستندل ربما لا تكون بين الناجين.

ابتعدت عن المرآة واعتزمت النزول من غرفتها لتبحث عن طعام تتناوله لشعورها بالجوع، وخاصة بسبب هواء البحر الذي تسلل طوال الليل الى غرفتها.

هبطت سلم البرج الدائري، حتى وصلت الى ممشى يؤدي الى القاعة، ومنها الى ساحة مقنطرة. كانت الشمس تملأ المكان بأشعتها الذهبية عندما وقفت تحت قناطر الباحة تتطلع الى المنظر.

كان هناك تحت شجرة بنفسجية مزهرة مائدة صغيرة وشخص جالس، في شعره الأسود بعض خيوط فضية، منهمكاً في تقشير المندرين. وكادت ايفين ان تتراجع حينما تطلع هو الى فوق كأنما شعر بوجودها، وادار رأسه نحوها ناحيتها وقال:

«صباح الخير، يسرني مشاركتك يا آنسة بلغريم».

والتقت لعينها في عصبية، فهو رغم ثيابه غير الرسمية المؤلفة من سترة كشمير ذهبية وسروال بني، لا يزال يبدو مترفعاً في وقفته. استند بيده على حافة المائدة الى ان جلست في المقعد الآخر. وبعد جلوسه لاحظت كيف يمد ساقه اليسرى كأنه غير قادر على ثنيها عند الركبة. سألها:

«هل نمت نوماً حسناً؟».

ثم دق جرساً فضياً صغيراً واستمر في تقشير المندرين الذي اختلطت رائحته بشذى الازهار والأشجار.

«اجل، شكراً».

وشعرت ايفين بالحياء ولم تكن واثقة منه فسألته:

«وترى هل سمعت شيئاً عن ركاب الباخرة الآخرين يا سيدي؟».

«لقد ذهب امريتو الى العاصمة للاستفسار بالنيابة عني، ولابلاغ السلطة ايضاً انك ضيفة عندي».

بدا لها غريباً ان يقال عنها ضيفة، وهي التي لم تكن تجد في السنوات القليلة الماضية فراغاً من الوقت للراحة، ولم تكن تعامل بانصاف. كانت تخدم الغير ولا احد يخدمها على هذا النحو.

قدم الخادم وسألها المركيز:

«ماذا تحبين للافطار، بيض مقلي، فطائر ساخنة وعسل ام مربى؟».

«اجل، ارجوك». وعبق خداها بحمرة الخجل واستطردت: «كل شيء يبدو لذيذاً، وافضل العسل».

ونظر الى خادمه، الواقف بأدب في سترته البيضاء وسرواله القاتم، وقال باسبانية سريعة مما زاد في روعة المكان الذي وجدت ايفين نفسها فيه.

«لقد تناولت افطاري من القهوة والفطائر والفاكهة». وتطلع المركيز الى البلوزة والتنورة وقال: «ارى ان رغبتي بشأن الثياب قد نفذت. انك لا تبدين هذا الصباح كفتاة حزينة تائهة».

«انا شاكرة لك هذه الثياب يا دون جوان. ولا ادري كيف سأرد هذا الجميل».

قال بطريقة مبهمة:

«بالتأكيد سنجد طريقة ما».

ورأت اسنانه اللامعة الصلبة وهو يأكل المندرين. وكانت الشمس تتسلل من خلال اغصان الشجرة البنفسجية، وشاع الدفء في المكان باستثناء العينين السوداوين اللتين تنظران اليها قال:

«الحياة تغيرت بالنسبة اليك فجأة على نحو مثير يا آنسة بلغريم. الا تثيرك هذه الاشياء الجديدة؟».

«في هذه اللحظة اشعر بالحيرة».

وراحت ايفين تتطلع الى قناطر الباحة وارضيتها وجدرانها المذهبة، والازهار. والنافورة غير الظاهرة وبعض الطيور المغردة عند اشجار الدفلى العطرة. يا لها من حديقة جميلة ربما تخفي بداخلها حية. كان كل شيء اشبه بالحلم، وكانت ايفين تتخذ موقف الدفاع. لقد تعلمت ان تكون كذلك. حتى عندما كانت الموسيقى تعزف على الباخرة ثم حدث ما مزق قلبها عند القاء الركاب المسالمين الى البحر. وتحدث المركيز دون جوان بلهجة حادة:

«عليك الابتعاد عن الماضي، صدقيني يا آنسة، الذكريات قد تظل شديدة الوطأة. وانت بعد صغيرة وعليك ان تتخلي عن النظرة القاتمة».

امسكت ببرعم سقط على المائدة وقالت:

«في هذه اللحظة الذكريات حية لا تنسى. سأشعر بتحسن عندما اعلم ان السيدة ساندل سالمة».

«ولكنك لم تكوني سعيدة في عملك معها».

هزت ايفين رأسها وقالت:

«كانت قاسية، ومع ذلك لا تستحق الغرق!».

«نحن الاسبان نؤمن بأن لكل انسان قدره. ها هو لويس يأتي بالافطار».

قال دون جوان ذلك وهو يقف ممسكاً بعصاه ذات الرأس الفضي، واضاف:

«عندي بعض الأعمال، ولهذا سأتركك تتسلين بمشاهدة المكان، ومداعبة الحيوانات. واذا رغبت في المطالعة فإن مدبرة المنزل ستدلك على الطريق الى المكتبة الموجودة بالبرج. تذكري ان عليك الابتعاد عن الصور الكئيبة والهموم في هذه السن».

وانحنى امامها انحناءة صغيرة، ونظرت الى اصابعها وهي تسحق البرعمة البنفسجية عندما ابتعد بساقه العرجاء في اتجاه قاعة القلعة. ترى ما الذي يحزنه ويجعله رجلاً لا يبتسم الا نادراً؟ انه مثل برجه البحري مترفع وغامض.

رتب لويس الصحون امامها على المائدة، البيض المقلي بالزبدة والفطائر الساخنة والعسل وابريق الشاي الفضي.

قالت له بالاسبانية شكراً وابتسمت. ولكنه كان متحفظاً مثل آلة. كأنه يعرف انها غير معتادة على ان تعامل كسيدة للبيت. وجمع البراعم المتناثرة، وقشور المندرين التي تركها سيده. احست ايفين بشيء من الامتعاض. لقد قال لها دون جوان: «بيتي هو بيتك». ولكنها تبدو بالنسبة الى الخدم دخيلة. وهم يرون انها تفتقر الى الثقة التي يعرفها من وُلد لاعطاء الاوامر وتلقي الخدمات. وهم يعرفون انها كانت تعمل خادمة لسيدة.

اثناء تناولها الافطار امتد رأس كلب من خلال ساتر الازهار المجاور. نظر اليها الحيوان، ثم دنا كي يتفحص وجهها الغريب. لم تشعر بأي خوف اذ كان بيت ساندل يعج بالكلاب. فقالت:

«مرحباً، ارجو ان تكون اكثر وداً من بقية الحاشية».

جلس كلب الصيد الالزاسي على مقدمتيه وتشمم نعليها التوريرو وأسند رأسه ورقبته ذات الطوق والميدالية عند قدميها. فقالت مداعبة: «وما

اسمك». وانحنت الى الأمام والقت نظرة على الميدالية التي تحمل اسمه ثم قالت: «كارلوس، تعال نتمشى معاً».

وسمع الكلب ذلك، ولكنه هز المائدة وتطلع الى بقايا الطعام في الصحون، فقالت:

«اعتدت على الرشوة، اليس كذلك؟».

نظر الكلب اليها راضياً بعد ان التهم قطعة فطير بالعسل، وبعد ذلك قادها خلال مسلك مفتطر الى الجزء الرئيسي من ارض القلعة. وكانت هناك درجات سفلية من الحجر، تزينها على الجانبين تماثيل واصص. واشجار اللبلاب تتدلى فوق التماثيل بظلها الأخضر، وفي اسفلها يمتد ممشى مائي يزخر بأشجار وازهار تنعكس عليها اشعة الشمس.

هذه الحديقة الشاسعة الرائعة لأجل رجل واحد فقط. . . . انها مكان يمكن للصغار ان يمرحوا فيه وان يتسلقوا اغصان اشجار المنغوليا.

وتبعت الكلب الذي مشى في ممر اشجاره ذات اوراق مخملية غريبة، وكان في آخر الممر مستنبت زجاجي على مدخله مصباح معلق في سلسلة. وخطت ايفين خطوة الى الداخل ورأت اغصان نخيل مدلاة ورقعة ظليلة بها اثاث من الاغصان المجدولة، وبركة بحرية صغيرة يلهو فيها سمك ذهبي. وكانت الاعشاب السحلبية المعمرة واشجار اللوتس تفوح برائحة مخدرة، واشعة الشمس تتسلل من خلال قبعة المستنبت الزجاجي.

ادخل الكلب كارلوس انفه في بركة السمك، ثم تمدد عند حافتها فوق بلاطها الملون. وتأملت ايفين ما حولها بسرور، ومدت يدها الى رؤوس الازهار الاستوائية الملونة وانحنت لتفتح احداها. ترى هل يأتي دون جوان الى هنا لتدخين سيكار من ورق هذه الازهار التي تتفتح ليلاً، وهل يرافقه الكلب ويقبع عند قدميه؟ في وسع ايفين ان تتخيله، وهو غائب وسط دخان سيكاره في هذا المكان الغامض، ووهج سيكاره ينعكس على وجهه النحيل.

جلست على مقعد من الأغصان المجدولة، وادار الكلب رأسه كي ينظر اليها. «يا لك من حمل في جلد ذئب، الست كذلك يا كارلوس؟» ثم ربتت بيدها على ظهر الكلب وراحت تفكر. ترى الى متى يتوقع دون جوان ان تمكث في القلعة؟ وماذا يحدث لو ان ايدا ساندل سالمة لم تغرق وتريدها؟

تنشقت ايفين رائحة الزهور المثيرة التي تجمعت مزهرة من حولها، وشعرت بالسكينة والراحة لأنها لا تعمل الآن عند امرأة مثل ايدا ساندل كثيرة الطلبات. الآن يمكنها ان تبتعد عن الهموم. . . ولكن لا يمكنها أن تتوقف عن التفكير فيما يكمن وراء دعوة المركيز. انه يتسم بالبرودة والروح القاسية، وهذا لا يجعله متعاطفاً مع فتاة انكليزية شردها البحر. لماذا سألها بسخرية: «تظنين انك اثرت مشاعري؟».

عضت ايفين شفتها، واقبل الكلب واراح رأسه على حجرها كأنما شعر بقلقها. فدفنت اصابعها في رقبته وقالت:

«كارلوس، ليتك تستطيع التحدث وتخبرني بحقيقة سيدك. انه يخيفني قليلاً، فهو ليس كأحد ممن التقيت بهم من قبل. ان عائلة ساندل تظن نفسها ارستقراطية، ولكن المركيز نبيل حقاً، ولا ادري ماذا يريد مني».

مضى الصباح، وعادت الى باحة القلعة لتتناول الغداء وحدها، وبعد ذلك كان كل شيء هادئاً، وفهمت من آلما ان المركيز سيتغيب بقية النهار. «ونصح الآنسة ان تنام القيلولة، والا فستجد النهار طويلاً. ان دون جوان سيتعشى بلا شك مع صديقه السيد فونسكا وابنته الجليلة دونا راكيل في دارهما بالبلدة، ثم يذهبون الى المسرح. وسيكون الوقت متأخراً حين يعود الى القلعة».

قالت ايفين بشيء من الفضول:

«ان دونا راكيل اسم جميل».

والقت مديرة المنزل نظرة على قوام ايفين وقالت:

«يمكنني ان اؤكد لك يا آنسة ان دونا راكيل آية من الجمال الاسباني. واذا تزوج دون جوان فلن يختار عروساً افضل منها. الاسباني النبيل عليه ان يتزوج فتاة كريمة الاصل، وقد تعلم درساً من الزواج الكارثة الذي مني به والده عندما تزوج بواحدة ليست من مستواه».

التقطت ايفين انفاسها وكانت تريد ان تطرح مزيداً من الاسئلة، ولكن آلما تركتها تفكر ملياً في كلماتها الأليمة.

في ساعة متأخرة من الليل بينما هي مستلقية في الفراش سمعت عودة سيارته وهي تزمر كي يفتح الحارس البوابة. وتصورت سيارة الليموزين تعبر البوابة، وراكبها في المقعد الخلفي وعلى شفتيه نصف ابتسامة اثناء

تفكيره في دونا راكيل.

هناك الكثير الذي ينبغي معرفته عن سيد القلعة. ولهذا تأمل ايفين ان تمتد اقامتها حتى تتبين اي رجل يختفي وراء قناعه المتحفظ الذي يتعذر فهمه!

مرت عدة ايام قبل ان تراه ايفين ثانية. وكانت القلعة مكاناً ممتعاً فأخذت تتجول في ارضها خلال النهار، وتستكشف غرفها ذات الصدى. وكان دون جوان اذا اتى المساء يركب سيارته للعشاء مع الاصدقاء او يتناول عشاءه بمفرده بدون ان يدعو ضيفته الشابة لمشاركته. ووجدت ايفين في الكلب رفيقاً مؤنساً فلم تكترث لتجاهله لها. كان ذلك تغييراً مريحاً بعد ان ضاقت ذرعاً بحياتها مع ايدا ساندل.

علمت من مديرة المنزل ان امريتو عاد من اسبانيا فظلت طوال ذلك اليوم تنتظر الاخبار. ولهذا لم تفاجأ لأن المركيز ترك لها رسالة تقول انه سيتناول العشاء معها الساعة التاسعة!

لم يكن في خزانة الثياب ثوباً للعشاء، لذلك رأت ان ترتدي الثوب الحريري المزركش، كان مقاسه كبيراً لا يناسبها، ولكن بفضل تدربها على استعمال الابرة استطاعت تعديله. كانت رسوم الثوب عبارة عن زهرات قرمزية تنسجم مع لون شعرها الداكن الاحمرار، ولكنها حدثت نفسها بأن دون جوان لن يلاحظ على الارجح كيف تبدو في الثوب.

وحانت لحظة ملاقاته، وبعد نظرة اخيرة في المرآة، هبطت سلم البرج ببطء، وكان السلم الدائري خلفية زادت من رشاقة قوامها وشبابها وشكوكها. ووصلت القاعة الحافلة بظلال الالواح الخشبية والعديد من الصور والدروع. وعبرت القاعة بنعليها التوريرو الى غرفة مكتب دون جوان الخاص. وارتعشت اصابعها وهي تقرع الباب.

كانت ساعة القاعة تدق التاسعة وهي تقرع الباب. فاستجمعت قواها ودخلت الغرفة. وجدته واقفاً امام خزانة كتب مرتدياً سترة مخملية سوداء للعشاء، وقد استند على عصاه وبدا عظيماً الى حد ان ايفين احمرت خجلاً.

وقال بلهجة رسمية وهو ينظر اليها بدون اي تغير في تعبير عينيه السوداوين:

«مساء الخير يا آنسة بلغريم. سنذهب للعشاء في الغرفة المجاورة

الملحقة بهذه الغرفة».

استعان بعصاه وهو يمشي نحو باب من شقين وفتحهما. وتقدمته ايفين الى غرفة الطعام. ولم تبدد فخامتها حياءها. كانت المائدة الطويلة معدة بالشمعدانات والبلور. وازدانت قمة كل من المقعدين الموجودين في طرفي المائدة باكليل مذهب. وهرع الخادم وسحب المقعد الموجود في نهاية المائدة فجلست ايفين وامتلأت عيناها بضوء الشموع وهي تمد بصرها ناحية مضيفها، وكان الاكليل يعلو رأس ايفين وشعرها الأحمر وبدت كأنها لا تشعر بأمان وتخاف من الرجل الجالس قبالتها.

«لا بد من الحصول على ثياب من مقاسك، ولن يكون بينها بالتأكيد ما هو قرمزي اللون».

هذه هي الكلمات التي خرجت من بين شفتيه الجامدتين. وبعد نفس عميق قالت ايفين:

«ولكن ربما لن امكث هنا طويلاً».

«عندي اليوم اخبار قد تطيل في بقائك كضيفتي».

«اخبار عن السيدة ساندل؟».

لم تلحظ جيداً وقفته قبل تفوه الكلمة الأخيرة، ولكنها كانت قلقة عن المرأة التي كانت في اكثر من مناسبة غير طيبة معها، فعادت تسأل:

«اخبار حسنة يا سيدي؟».

داعبت اصابعه كوب عصير الفاكهة الذي ملأه لويس، ثم قال:

«علمت من الشرطة في اسبانيا ان سيدة تدعى ساندل كانت بين الركاب الذين تم انتشالهم ونقلهم بالباخرة الى طنجة. ومن هناك علمت انها ركبت الطائرة عائدة الى وطنها انكلترا، مفترضة ولا شك ان مرافقتها قد غرقت. وكان من السهل ان تعلم بنجاتك لو انها اتصلت بالسلطات الاسبانية، ولكن يبدو انها لم تكترث. اذ بعد نجاتها لم تهتم الا بنفسها فقط».

كانت كل كلمة محددة وباردة كالصقيع على الزجاج. واصبحت النتيجة واضحة للغاية، انها الآن في حمى هذا الرجل وحده.

وعندما تطلعت اليه، انعكس لهب الشموع فوق الخشب الوردي والفضة. وحاولت ان تقرأ ما يجول في عينيه، وادركت ان عليها اطاعة ما يقرره بشأنها.

طلب من الخادم السلطة، ثم قال:

«لم تعودي بعد الآن في خدمة امرأة مدللة اتانية».

كان الطعام لذيذاً وممتعاً. ورغم جلوسها بعيدة في طرف المائدة فقد شعرت ان دون جوان اصبح يستحوذ عليها.

بعد العشاء لم يعودا الى الغرفة الملحقة بغرفة الطعام:

«هناك صالون صغير غير مستعمل كثيراً هذه الايام، اريد ان تشاهديه»، قال دون جوان ذلك بينما كانت عصاه الابنوسية تضرب بلاط القاعة وهو يتجه الى باب يحرسه درعان. وكان الباب بيضاوياً عميقاً. واخرج سلسلة مفاتيح من جيبه وانحنى وفتح قفل الباب. ثم قال وهو يدير زر الكهرباء ويضيء الغرفة:

«انا نُسميها الغرفة الذهبية».

كانت اشبه بصندوق حلي يكشف عن روائعه.

أومأ اليها بالدخول: «تفضلي». واطاعته كأنها في حلم، وتأملت ستائر النافذة الذهبية التي تنساب من تيجان عالية الى سجاد الارض الثمين. ورأت اثاث الغرفة الرائع، والمزهريات الذهبية واللوحات المذهبة التي تغطي الجدران والسقف.

كانت غرفة جميلة لها ذكريات بالنسبة الى المركيز الحزين. وراحت ايفين تلمس بعض تحف الغرفة الخلابة مثل سلة اندلسية وشال مطرز ملقى على بيانو عاجي اللون مذهب، وفوق غطائه وردة حمراء. كانت الغرفة تفوح بجو رومانسي حزين، ولا بد انها كانت تخص سيدة تستعملها كثيراً. من كان يعزف على البيانو؟ من كان يحب الورد الاحمر والموسيقى؟

وقعت عيناها عندما دارت لتنظر الى دون جوان على صورة عُلّق فوقها صناجتان للرقص على شكل صدفة. وتأملت ايفين صاحبة الصورة: الشعر اسود فاحم والثوب احمر ياقوتي، والوجه في لون القشرة، والعينان سوداوان. كانت صورة فتاة في وقفة راقصة، ذراعها اليسرى تعلو الى الوراء، والصناجة (الكاستانيت) على اصابعها، والزهور في شعرها مليئة بالحيوية كعينيها.

«هذه صورة لأمي روزاليتا، الراقصة الغجرية التي تزوجها ابي».

قال دون جوان العبارة الأخيرة بعدما اصبح وراءها بقامته المديدة.

واستدارت ايفين لتنظر اليه بعد المفاجأة وهي مبهورة الانفاس، والتقت عيناها بعينيه.

«نعم كانت امي فتاة غجرية، ولم تغفر له العائلة ابداً زواجه منها. ولقد جاء بها لتعيش هنا، واعد لها هذه الغرفة التي كانت تلوذ بها في فترة حملها لكي تعزف على البيانو موسيقى الفلامنكو التي كانت تحبها. كانت شعلة من المرح والسعادة، ثم اصبحت زهرة ذبلت ببطء في الجو الخانق الذي يحيطها به عائلة ابي».

امتلأت عينا دون جوان بذكريات اثارتها صورة امه فقال هامساً:

«اتذكر كيف كانت تدقّ الصناجات قبيل الرقص بين شلالات شعرها الاسود كالليل».

وتقدم الى الجدار وأخذ الصناجتين من المسمار الذي تتدليان منه، فاذا برنتها كصدى صرخة انقطعت. ثم اعادهما. وقال:

«سنتناول القهوة هنا».

وأمسك بمشد الجرس وقرعه، بينما راحت ايفين تمعن النظر اليه. وقد لاحظت ان عينيه شبيهتان بعيني امه، وان تحت عظام وجهه شعلة تخفيها برودة الوجه. سألها وهو يشير الى البيانو:

«أتعزفين؟».

اجابته في رزانة:

«اعمال المرافقة لم تكن تتضمن هوايات كهذه يا سيدي».

كانت تجلس فوق كرسي كسوته حريرية، وقد تشابكت يداها في حجرها. انها تريد سماع المزيد عن امه. اتتجاسر على الطلب؟ رأت ان تمتنع عن الطلب، في الوقت الذي كان ينحني على عصاه امامها ويقارن ولا شك بفكره بينها وبين فتيات بلاده. وعاد يسألها:

«كم سنة اشتغلت عند تلك المرأة؟».

«منذ كنت في الخامسة عشرة يا سيدي، بعدما قتل ابي من جراء رفسة جواد».

وفي الحال لمعت عيناه السوداوان وسألها:

«أكان يمتطي صهوة جواد؟».

«كان في بيت ساندل ضيوف للصيد، وكان يقدم يد المساعدة في

اصطبلات الخيل».

وأطبقت يداها في ألم وهي تتذكر موته ثم تابعت:

«وقع الحادث وهو يهيىء ركاب الجواد. كان يحب الحيوانات، وهكذا مات».

«وأمك؟».

«لا اتذكرها يا سيدي. لم يكن لي غير ابي، وبعد ذلك اشتغلت في بيت مانذل».

«ألم تكوني راضية؟».

«احياناً كنت افكر في الهرب».

«ولماذا بقيت؟».

«لأن المدن مملوءة بالضجيج، وعندما كنت استطيع الافلات من البيت الريفي ساعة، كنت اجد في غابات وبراري سومرست مجالاً للتجول. كنت قريبة من الاماكن التي احبها ابي دائماً، الطيور وجماعات روماني الغجرية التي كانت تخيم في المرج..».

«هل كنت تحبين هذه الجماعات؟».

«كانوا يضجون بالحيوية، ولهذا...».

ضحك دون جوان. كانت المرة الاولى التي تسمعه يضحك فيها، وقد عكست عيناها دهشتها. قال:

«صحيح. هناك عرق يتعذر ترويضه عند الغجر وهم يحبون الفقير والغني على السواء».

دخل الخادم لويس بصينية القهوة، فطلب منه وضعها على الطاولة القريبة من ايفين. ولمحت الانتفاضة الخفية في عيني لويس وعرفت في الحال ما يدور برأسه. لم يكن عادياً ان تجلس فتاة خادمة في الغرفة الذهبية، والقهوة الى جانبها لكي تصب للمركيز قهوته.

ولكونها كانت خادمة فانها تعرف ثرثرة الخدم في المطبخ. ولذلك شعرت بالحرج.

وانغلق الباب وراء لويس فقال دون جوان: «ارجو ان تصبي القهوة». ثم اتخذ مقعداً ومدد عليه ساقه التي تؤلمه. واحتاطت ايفين لئلا تنسكب القهوة منها وهي تصبها من الابريق وارتعشت يدها قليلاً وهي تناول دون

جوان فنجان قهوته الخالية من السكر بناء على طلبه. سألها:

«هل انت مضطربة بسببي؟».

«وهل تستغرب يا سيدي؟ انا لست معتادة على كل هذا».

«مع الممارسة سيكون كل شيء على اكمل وجه».

رفعت بصرها اليه، وكأن سلكاً كهربائياً قد نبه التفاتها. لقد رفع حاجبه الاسود وهو يشرب قهوته، وقال:

«سنكون معاً هكذا مرات اخرى يا آنسة بلغريم وأرجو مع الزمن الا تنظري الي كما لو كنت غول القلعة».

«لم افعل».

«عيناك واسعتان، وفي وسع المرء ان ينظر في اعماق العيون كما ينظر من نوافذ البيت. انه نوع من التطفل اشبه بنظرة مختلة الى روح شخص آخر».

التقت نظراتهما وشعرت انها قد سلّمت هذا الساحر الاسمر شيئاً من دخيلة نفسها.

«تناولي قهوتك قبل ان تبرد». ثم تابع: «لقاؤنا هنا في هذه الغرفة هو احتفال بنجاتك ووصولك سالمة الى جزيرة دي ليون، يا له من عالم صغير. ان الحظ يا آنسة بلغريم سيد على الجميع».

اطمأنت ايفين نفساً بعد ان انتهت من تناول القهوة، وزال توتر اعصابها. واحست بالراحة في هذه الغرفة، واستطاعت ان تتخيّل روزاليتا وهي تعزف البيانو وفي شعرها الفاحم وردة قرمزية.

لمحت دون جوان يتطلّع الى صورة امه وهو غارق في افكاره، ووجدت ان في استطاعتها دراسة صورة وجهه الجانبية، فقد امتزجت القوة والعاطفة في ملامحه امتزاج البياض والسواد في شعره. ان الالم ترك خطوطاً بجانب شفتيه وبياضاً في شعره. وعرفت بغريزتها لا بعينيها انه اصغر سناً من مظهره.

«هل شاهدت رقصة الفلامنكو؟».

«كلا يا سيدي. سمعت انها مثيرة جداً».

«رقصة الفلامنكو هي مبارزة بين رجل وامرأة».

وعند ابتعاد عينيه عن صورة امه لاحظ نظراتها اليه، ولكنه تابع قائلاً:

«لا بدّ ان اتيح لك فرصة مشاهدة الفلامنكو. ان الناس يعتبرونها نوعاً

من تعليم بناتهم، واعتقد ان هناك الشيء الكثير الذي يتوجب عليك تعلمه».

«انا في التاسعة عشرة!».

«انها سن المعرفة، والعتبة الى العشرينات عندما يكون المرء عاطفياً غير متمكن من السيطرة على عواطفه».

وبينما كان يرفع سيكاره الى شفتيه، كانت لعينيه قوة جاذبة تشدها اليه. وكانت ازرار قميصه الصدفية السوداء تلمع لمعان عينيه. قال:

«انت تعتقدين انني متغطرس وسيد العارفين؟».

وبشيء من الجرأة قالت له:

«اعتقد انك تعتبر الناس قطع شطرنج بين يديك».

«وأية قطعة شطرنج انت يا آنسة؟».

«بيدق ضعيف من بيادق الملك».

«واية نقلة سأعتزم نقلك؟».

«لا ادري».

«ولكني اراك واسعة الخيال».

واستقرت نظرته على شعرها الداكن ثم على عينيها العسليتين الذهبيتين. وراح بقيّمها وهي بثوبها الذي لا يناسبها ولا يجملها. وظنت انه سيبتسم ولكنه ظل متحفظاً ومتستراً بقناع من الوسامة الشيطانية.

هزتها الكلمة عندما المت بفكرها. ان المرء لا يستعملها بالنسبة الى الرجل، ولكنها كلمة سبق ان استعملت بالنسبة الى دانتي وبايرون، والى الشهيد سباستيان. وسيد الجزيرة الاسمر الخطر شبيه بهم. هذا الشيطان الطويل الاعرج!

قرأ عينيها واخفى عينيه وراء سحابة دخان سيكاره وقال:

«ان خيالك يعمل حالياً، ان مستوى استجابتنا للحياة اما عميق واما ضحل، وعذاباتنا المترتبة على ذلك سببها هذا المستوى. ولا اظن انك ضحلة يا آنسة بلغريم، والاّ لطلبت من امريتو ترحيلك من الجزيرة الى اسبانيا».

«ربما آثرت الذهاب الى هناك، اذ لا استطيع البقاء هنا الى ما لا نهاية يجب عليّ ان اجد عملاً... فليس معي نقود».

«الشيء الكثير. لقد لاحظت على المائدة انك تأكلين كالعصافير، ولعل الحياة علمتك القناعة بأقل مما ترغبين. ما هي امنيتك يا آنسة؟ فقد أكون قادراً على تحقيقها لك».

قالت بلهجة جادة:

«انا في حاجة الى عمل».

ابتسم على الفور وقال:

«يا لك من مخلوقة صغيرة قنوعة. اي نوع من العمل تريدين؟ مرة اخرى خادمة تقوم بكل الاعمال عند امرأة لا قلب لها».

«هذا كل ما تدربت عليه يا سيدي. اتعرف واحدة؟».

«نعم، عدة سيدات يسرهن ان تعملي لديهن».

«اذن؟».

«لن اوصي بك عند اية واحدة منهن».

«اوه!».

«لا تذرفي دموعك!».

قالت بعزة نفس:

«انا... انا لا ابكي ابداً امام الآخرين».

«صفة ممتازة».

«قد تكون كذلك في حضرة شخص مثلك».

«مثلي انا؟».

«انت اسباني ارستقراطي لست في حاجة للاعتماد على الآخرين للعيش».

«واننا جميعاً يا آنسة نعتمد على الآخرين بشكل او آخر. عليك ان تكوني طموحة لما هو اكثر من خادمة او مرافقة. قولي، ماذا تودين تحقيقه في حياتك؟».

كان لاظهاره الاهتمام بها والاستعداد للاستماع اليها اثر عكسي عليها، اذ اضطرها هذا للسكوت حياء. انها في اية حال لم تفكر ابداً تفكيراً جاداً بشأن عمل آخر، فذلك يتطلب دراسة خاصة وهي قد اخرجت من المدرسة والحقت بالعمل في البيت الريفي يوم كانت في ربيعها الخامس عشر. بالطبع، وكأي فتاة اخرى. كانت تظن انّ العمل كمضيفة جوية

شيء ممتع يتيح لها السفر الى بلاد اخرى. واحياناً كانت تحلم من اعماق قلبها ان العمل معاونة لشخص لامع في تجارة التحف والروائع الفنية.

كانت ايفين مولعة بالاشياء القديمة الرائعة، واستجابتها لهذا المكان مرده الى الروائع التي يزخر بها.

سألها دون جوان بصوت ودود:

«هل امنيتك متعذّرة الى حد لا تتجاسرين على ذكرها؟».

طأطأت رأسها خشية ان تلتقي عيناها بعينيه، ثم توجهت به يتقدم اليها متكئاً على عصاه، ويرفع ذقنها بيده لتنظر اليه. وارتعشت رعشة خفيفة لم تقو على السيطرة عليها، وقالت:

«اذا عرفت فقد تبتسم».

انا شخص لا يجب اخفاء الامور عنه. تعالي واذكري امنيتك وسنرى اذا كان في مقدوري تحقيقها».

«لا تستطيع ان. . .».

فقاطعها قائلاً:

«على الأقل دعيني اسمع هذا الذي لا استطيع فعله».

رفع رأسها فلم تستطع الافلات من نظراته وهو يتفحص وجهها القروي وبشرتها الشابة وفمها الذي يفيض بالحساسية وعينيها العسليتين.

ان وجهها ليس ساحراً بالمعنى التقليدي، ولكن اذا هي اعطيت الثياب المناسبة، والفرصة التي تضيء الملامح عندئذ تكون لها جاذبية حلوة.

ولكن ايفين غير مدركة لذلك. وهي تعتقد انها فتاة عادية بالصورة التي اظهرتها فيها ابدا سائدل.

كرر الطلب لانتزاع أمنيتها وفي عينيه جاذبية قوية:

«هيا اخبريني».

«قد يكون رائعاً ان اعمل معاونة لبائع تحف فنية ناجح» ثم ضحكت قائلة: «أليست امنية مستحيلة لفتاة مثلي لا تعرف غير العناية بالكلاب الأليفة تبحث عنها وتحملها وتمشي معها نيابة عن ربة البيت».

«شيء غريب. عادة تطمح الفتيات الصغيرات للعمل في مجالات الجمال، عارضات ازياء او موديلات».

«عارضة ازياء؟». وضحكت ضحكة زادت من حلاوة عينيها. «لا

...اني اصلح لهذا النوع من العمل اطلاقاً».

ادار دون جوان وجهها من اليسار الى اليمين كما لو كان يدرس قطعة فنية وقال:

«تكوين عظام الوجه حسن. اذن انت تودين العمل في التحف النادرة الثمينة. اولاً عليك معرفة الامور التي تجعلها نادرة».

«هذا هو العائق». التمعت عيناها بمسحة جذابة واضافت: «لم احصل على قسط وافر من التعليم اذ تركت المدرسة يوم كنت في الخامسة عشرة».

بدت نشوة الحياة في عينيه:

«ايتها الصغيرة لقد كنت اقطع البراري في اميركا الجنوبية في صباي. كنت راعياً اي مجرد جوشو كما يسمون رعاة الأغنام هنا».

وأسرعت تقول:

«ولكنك المركيز دي ليون!».

«كنت مجرد راع لما كنت في الخامسة عشرة».

وابتعدت اصابعه عن وجهها، تاركة دفئاً احست به. وتحولت نظرته عنها الى صورة امه فقال:

«لقد مات ابي في الحرب الاهلية، وهربت امي من عائلته واخذتني معها الى الارجنتين في زورق لاجئين. وهناك اشتغلت راقصة فلامنكو، وصرت انا راعياً للبقر الى ان دفعني طموحي للعمل في استخراج الفضة من الاراضي النائية. وحالفني الحظ وعثرت على منجم فضة، فاشتريت لأمي بيتاً في ليما (عاصمة البيرو) ولم تعد في حاجة للعمل».

ثم تابع حديثه قائلاً:

«ماتت امي من شدة حزنها على ابي. لم اعد لجزيرة دي ليون الا بعد ان مات جدي. انني لم اغفر لأهلي ابداً تجاهلهم لأمي. كانت اسرة ابي تريدني وحدي ولا تريد امي روزاليتا، ولكنني آثرت البقاء مع امي وشق طريقي وحدي. لقد اضطرتني الاحداث للعودة الى الجزيرة، ولكني خلّفت ورائي محبة لمدينة ليما بتاريخها الوحشي وجمالها الغريب».

ولمعت عيناه والتقت بعيني ايفين، فقال:

«ان راعي البقر يعيش على سرج الجواد. لم اكن دائماً كما تجدينني الآن».

«هل تعرضت لحادث. . . يا سيدي؟».

«اجل، حادث».

كان يبدو انه لا يريد ان يتحدث عن هذا الجانب من حياته في ليبيا، وفي لحظة اتسمت ملامحه بذكريات اليمة، ولهذا قال:

«اذن فأنت تحبين العمل وسط تحف قديمة جميلة؟».

اجابت بنصف ابتسامة:

«اليس جميلاً ان نحلم؟».

«لا حاجة ان يظل حلماً. انت لست فتاة سطحية. ارى من ناحيتي انك تقدرين هذه الغرفة بتحفها التي جئت بها من ليبيا وباثاثها الجيد الحفر. بالطبع أنت في حاجة لتعلم اشياء كثيرة، ومعرفة لغة اجنبية شيء ضروري. لي صديق يقيم في الجزيرة ويعرف الكثير عن كبار الرسامين والنحاتين، وكان يتولى التدريس في مستهل حياته. انه السيد فونسكا. أتعرفينه؟».

تذكرت قول مديرة المنزل بان للسيد فونسكا ابنة بارعة الجمال يحتمل ان تصبح زوجة دون جوان. فاجابت:

«نعم يا سيدي».

«حسناً عما قريب سآخذك اليه ونبحث امكانية ان تكوني تلميذته بضع ساعات يومياً. ان عينيك تتسعان من الدهشة. اليست امنيتك هي تحصيل العلم من رجل قدير؟».

«انا... انا افكر في المصاريف يا سيدي».

«كفي عن هذا التفكير فوراً. قد يأتي اليوم الذي يمكنك فيه تسديد ذلك، وفي الوقت ذاته، سأستمتع بان اكون وصياً على فتاة انكليزية».

«وصياً؟».

«الم نتفق في ان اكون مسؤولاً عنك اثناء اقامتك في الجزيرة؟ واذا وافق السيد فونسكا على قبولك طالبة، فسيتطلب ذلك فترة قبل ان تتمكني من مغادرة الجزيرة الى عالم الفن والتحف. وستحتاجين الى بيت ولهذا ستقيمين هنا. عندي قريبة في اسبانيا هي السيدة اوغستا يمكنها الحضور للجزيرة لتظل في رفقتك حرصاً على اللياقة الاجتماعية. ايرضيك هذا؟».

علتها حمرة الحياء وارتبكت لقدرته على قراءة ما يجول بخاطرها، وقالت:

«انا... لا اعرف كيف اشكرك يا دون جوان».

«ستكون اكبر مكافأة لي ان ادخل يوماً الى محل للتحف واجدك المسؤولة عنه».

كان يفحصها حتى اثناء حديثه:

«غداً اطلبي من مديرة المنزل اخذ مقاساتك، كي ترسلها الى بيت ازياء ممتاز في مدريد، مع تفاصيل عن الوانك. سنطلب لك نصف دزينة من ... في ذلك الثياب النهارية والمسائية من اجل نمط الحياة التي ستعيشينها وانت تحت وصايتي». ثم مد يده ليمنعها عن شكره: «لا تقولي كلمة شكر اخرى. انا افعل ذلك لصالحي. ان الورود الحمراء على هذا الثوب لا تتناسب مع لون شعرك يا آنسة».

كان يمكن ان تشعر بحنان نحوه في هذه اللحظة، لأنها كانت في غاية الامتنان له من اجل هذه الفرصة التي اتاحها لها. ولكنه اسرع متكئاً على عصاه كي يفتح الباب، وقال:

«عليك ان تأوي الى فراشك الآن».

وودعته في القاعة:

«تصبح على خير يا سيدي».

«وانت على خير يا آنسة بلغريم».

وانحنى للانصراف واسرعت هي في القاعة وسمعت انغلاق باب الغرفة الذهبية من ورائه.

هكذا اذن قد تغيرت الحياة بالنسبة لها، فوصيّها الاسمر منحها امنيتها وستبدأ في التدرب للعمل.

لم يكن في القاعة احد، فوقفت امام مرآة على الحائط وانحنت باحترام لصورتها في المرآة، وابتسمت وقالت: «ستصبحين سيدة مجتمع يا ايفين، هل خطر لك ان شيئاً كهذا يمكن ان يحدث؟».

واثناء صعودها السلم الدائري في البرج، فكرت في ايدا ساندل التي لم تهتم بالاستفسار عنها ومعرفة ما اذا كان قد جرى انقاذها من الغرق. لعله من الخير ان ايدا لم تسأل عنها والاّ كان من الممكن ان تطالب بعودتها للعمل خادمة لكل شيء، وما كان دون جوان يقول انها من الآن فصاعداً ستكون تحت وصايته.

٣- أنا مشدود اليك

من المستحيل النوم في القلعة الى وقت متأخر فالشمس تغزو الغرفة مبكراً، وتملأ غرفتها في البرج دفئاً ونوراً. لهذا كانت تسرع في أخذ حمامها وارتداء ثيابها والخروج الى الشاطىء، مؤجلة الافطار تفادياً للانفراد مع دون جوان. أما هو فكان يذهب للعمل في برجه البحري بعد تناول القهوة والفاكهة، أو يأمر بمجيء السائق لنقله من أجل حضور اجتماع عمل في البلدة.

كان ينهمك كثيراً في كل شؤون الجزيرة، فهو رئيس مجلس ادارة في عدة شركات تتولى تأمين العمل والتعليم والرعاية الصحية لسكان الجزيرة. ولكن لم تكن لدى ايفين أية فكرة عن اشغاله في البرج البحري، وهو المكان الذي فتنها ولكنها لم تجرؤ على اكتشافه رغم انه سمح لها باستعمال المكتبة.

كان في وسعها ان تسأل آلما مدبرة المنزل، ولكنها منذ الصباح الذي أخذت فيه مقاساتها لارسالها الى بيت الأزياء المشهور في مدريد وهي تلتزم الصمت والجمود معها، كأنها تظن ان ايفين تستغل انوثتها لانتزاع أموال دون جوان.

قطفت ايفين زهرة برية، قبل ان تشق طريقها الى الشاطىء. كان يمكن ان تظل مسرورة بالثياب القليلة البسيطة التي وجدتها في الخزانة غير ان دون جوان كان رجلا دقيقاً بالنسبة الى الثياب، وقد قرر ان يرعاها ما دامت تحت وصايته. انه لا يقبل ان تعكر عينه الناقدة فتاة غير أنيقة.

وضعت الزهرة في ضفيرتها ووقفت تتأمل رغوة البحر البيضاء وهي تلتقي مع الرمال الذهبية. من يصدّق ان كل هذه المياه الزرقاء الجميلة

الثلاثة كادت ان تجرها في ليلة معتمة الى الاعماق وتخنقها. ومع ان الخوف قد ابتعد عنها، ومع انها تلهو على الشاطىء بجمع الأصداف وممارسة لعبة البط والمراكب بواسطة قطع من الأخشاب، فانها لم تجرؤ على الخوض في الماء لأكثر من قدميها. ولم تكن لها أية رغبة في تعلم السباحة منذ ليلة غرق الباخرة.

سمعت نباح الكلب كارلوس الذي جاء الى الشاطىء لمشاركتها في لهوها. كانت تلقي بقطع صغيرة من الخشب الناعم ليركض وراءها، وسرعان ما اقتربا من الطريق المؤدي الى كوخ امريتو في الغابة. قررت ان تزور ماري لويز وطفلها. وقبلت البقاء على الافطار ثم مجالسة الطفل بينما تذهب ماري لويز على ظهر حمار كي تتسوق من قرية الصيد الصغيرة التي تبعد نحو ميل بمحاذاة الشاطىء.

كانت ايفين معتادة على تسلية الاطفال الصغار اذ اشتغلت نحو سنة في حضانة الأطفال لدى آل ساندل. كل شيء كان على ما يرام الى ان التقط الطفل حصاة بقبضته وحشرها في فمه. ولم تضيّع ايفين أي وقت في انتزاعها من فمه وهذا ما جعله يصرخ، وشاركه الكلب كارلوس بنباحه. وأخذت ايفين تتمشى على الرمال حاملة الطفل لتهدئته، واذا بشخص يظهر على الشاطىء ويتأمل ما يحدث.

وفجأة ترامى الى سمع ايفين صوت موسيقى غيتار، ونظرت حولها فوجدت شاباً يتقدم نحوها. وعندما اقتربت منه بدأ يغني أغنية اسبانية بصوت مخملي كعينيه، يرتدي بنطلون الميتادور وقميصاً حريرياً ويلف رقبته بمنديل احمر. كان شاباً أسود الشعر استند الى شجرة وراح يغني سرناده (أغنية عاشق تحت نافذة المحبوبة) للفتاة والطفل. كان صوته ساحراً حتى ان الطفل توقف عن الصراخ وأخذ يمص اصبعه راضياً.

وظل الشاب يغني ويعزف حتى نام الطفل ثم تقدّم بهدوء ليلقي نظرة اليه بين ذراعي ايفين. قالت بالاسبانية في حياء:

«ألف شكر لك يا سيده»

وأجابها بالاسبانية، ولكنها لم تفهم كلمة مما قاله. وأوضحت بالانكليزية:

«آسفة، أنا لا أتحدث الاسبانية».

ولمع بريق عينيه وقال:

«طفلك له رئة قوية يا سيدتي. وسيكون مغنياً مثلي».

وابتسمت للخطأ الطبيعي الذي وقع فيه وقالت:

«ليس هذا طفلي يا سيدي انني أرعاه الآن فقط حتى تعود أمه بعد التسوّق من القرية».

وزاد التألق في عينيه وقال:

«فهمت. عندما رأيتك قلت لنفسي: ويلك من سوء حظك إنك وصلت متأخراً جداً! في كل حال كان خطأ ساراً، فأنت اذن لست اما يا آنسة، ولست لرجل آخر؟».

«كلا».

قالتها بسرعة وأرادت ان تتجنب نظرة عينيه المثيرتين. ووضعت الطفل على قماشته السميكة، وبعدما نظرت ثانية الى عازف الغيتار الشاب انحنى امامها وقدّم نفسه معلناً اسمه ماتريك كورتيز ابستبان، ويقيم في الجزيرة لمدة ستة أسابيع يغني خلالها في نادي هيدالغو بميناء بورتو دي ليون.

«هل تسمحين لي بالجلوس الى جانبك؟»

وتطلع الى الرمل وفي لحظة جلس بحرية ثم تطلع اليها بابتسامة وقال في النهاية:

«ألا تقول الآنسة اسمها؟ ربما نتحدث ساعة ثم نفترق، فاذا عرفت اسمك سأتمكن من العثور عليك ثانية».

«أتريد هذا حقاً؟».

لم يسبق ان تحدث اليها شاب بمثل هذه الحرية.

«بعض الناس يرون ان ساعة تكفي لمعرفة كل شيء، في حين ان الأمر مع آخرين قد يستغرق العمر كله».

واستقرت نظرته على شعرها الذي جمعته في ضفيرة واحدة انسابت على كتفها النحيل، وتابع:

«لا بد ان لك اسماً فريداً، فهناك شيء غير عادي بالنسبة اليك. أنت تختلفين عن شابات الرحلات المرحات اللواتي التقيت وتحدثت اليهن في اسبانيا».

«أنت تتحدث الانكليزية بطلاقة يا سيد».

«هل أنت انكليزية يا آنسة؟».

«طبعاً».

«في الواقع، هناك شيء مختلف في صوتك».

وابتسم وقال:

«أنا مشدود اليك».

كانت عبارة ثناء جعلتها تتساءل ماذا كان يمكن ان يفعل هذا الشاب لو [illegible] وشعرها المرفوع فوق رأسها والنظارة على عينيها مثلما كانت في الأيام السابقة.

مال الى الأمام قليلا ليمعن النظر في الابتسامة التي تعلو شفتيها، ولم تشعر بأي خوف، ولا بأي حافز للتراجع كما فعلت مع دون جوان.

وأضاف:

«وضحكتك ايضا غامضة. هل جئت من مكان ساحر بين تلك الغابات الصنوبرية؟».

فأجابته بدلال:

«ربما من القلعة، ومعي كلبي لحراستي».

ونظر الى الكلب كارلوس الذي اقترب رأسه من كتف ايفين الجالسة، وقال:

«انه يدعو للمشاجرة. ألا تخافين منه؟».

ربتت بيدها على الكلب وقال:

«كلا اطلاقاً. انه حمل وديع».

«يبدو كالذئب».

«افترض اني أقول الشيء نفسه عنك؟».

ضحك للملاحظة البارعة بدون ان يتخلى عن التقرّب منها وقال:

«ان الاسبان هم سلالة جنس من ذوي الدم الدافىء يا آنسة، ويحبون التحدث عن الجمال. ما من اسباني يتسم بالبرود كما تعلمين. فالله وهبه نعمة النظر والحواس، وسواء كان صغيراً ام كبيراً فانه يحسن استخدام بصره وحواسه».

قالت: «أليس هذا صعباً، مع وجود القضبان الحديدية على النوافذ الاسبانية؟».

ثم ابتسمت ابتسامة رزينة خادعة.

أجاب في خبث:

«لا حاجز بيننا».

«هناك كارلوس، وكذلك كوني لا أكاد اعرفك يا سيد . . . .».

«هذه ملاحظة واعلة من الآنسة الغامضة. هل آمل ان تسمحي لي بأن نكون اصدقاء؟».

«جميل دائماً ان يكون للمرء اصدقاء».

«فتاة بمثل هذه الجاذبية لا بد ان لها عدة أصدقاء».

داعبت ايفين بأصابعها رأس الكلب وقالت:

«على العكس، هناك فقط امريتو وزوجته . . . ولست متأكدة من ناحية المركيز دي ليون».

رفع عازف الغيتار الشاب حاجبيه وسأل:

«أتعرفين المركيز؟».

«ومن الذي يمكنه ان يقول انه يعرفه؟». قالت ذلك وهي تمد بصرها الى البحر المحيط بالجزيرة وأضافت:

«أنا أعيش معه . . . يا الهي. هذا يبدو مستهجناً! أقصد، أنا تحت وصايته يا سيدي».

«تحت وصايته؟ تعنين انك الفتاة التي انقذوها من السفينة الغارقة؟ ان الجميع في ميناء بورتو دي ليون يتحدثون عنك. ولكن المركيز رجل لا يجرؤ على سؤاله احد. اذن فهو يقول انك تحت وصايته».

«نعم!».

وقفت فجأة فذعر الكلب، وكاد طفل ماري لويز يستيقظ، وسألته:

«بماذا يتحدث الجميع يا سيد كورتيز، هل يقولون انني أنتزع ماله؟».

«أنت؟».

وقبل ان يتابع كلامه نهض بقامته التي تعلو عنها بكتفيه ورأسه، وكان قميصه الحريري يلتصق بجسمه الشاب بينما هبّت نسمة لطيفة، وأضاف:

«كيف يمكن لأحد ان يراك وتساوره هذه الظنون؟ كما ان المركيز ليس بالأبله، وهو معروف بالكرم، ولكن لم تحرّك امرأة فؤاده».

علقت على قوله:

«انه اسباني حتى العظم. أليس الاسبان من ذوي الدم الدافىء كما قلت قبل قليل؟».

«كنت أتحدث عن الأشخاص العاديين».

«أعتقد ذلك».

وتلاقت عيونهما تحت نور الشمس، فتابعت:

«ان امريتو الذي يعمل عنده وجدني في البحر وجاء بي الى الجزيرة. وقال المركيز ان عليّ البقاء في القلعة الى أن يتم الاستفسار عن مخدومتي ومعرفة ما اذا كانت بين الذين تم انقاذهم. وقد نجت وسلمت ولكنها تركتني شريدة . . . وليس لي من أحد غير دون جوان. انه يعطف عليّ بطريقته الخاصة».

«ألم تفكري بأن له اسماً مشهوراً يا آنسة؟».

«ألم تقل لم تحرك امرأة فؤاده».

«كان دون جوان الآخر يحطم القلوب وظل قلبه سليماً».

«أتظن ان قلبي في خطر؟».

«ان المركيز شخصية مرموقة».

«وأنا لم أكن قبل اسبوعين غير خادمة يا سيد كورتيز».

«ألا تتكرمين وتنادينني باسم ريك».

«أتصر على ان نكون اصدقاء؟».

«أكثر من قبل. واذا لم تقولي لي اسمك، فسأدعوك سوليداد».

«اسم حزين!».

«معناه فتاة الوحدة، وهي حالة أرى ان أغيّرها».

«أنت واثق من نفسك؟».

«ألا تريدين الخروج من صدفتك؟».

«يبدو انها عملية مؤلمة . . .».

«أعدك بأنها لن تكون مؤلمة اطلاقاً . . .» وأخذ بيده الزهرة التي وضعتها في شعرها وقال:

«الحياة كهذه الزهرة، مزيج من الحلاوة والمرارة. الى اللقاء يا سوليداد».

ذهب مثلما جاء بهدوء وسط الأشجار، ولكن بعد لحظات سمعت ايفين

صوت محرك سيارة سريعة، وتخيلت السيارة تشق طريقها في الريح، والشال الأحمر الذي يلف عنق الشاب يتطاير في الهواء حتى غابت السيارة عن الأبصار.

وضعت ايفين الطفل في قماشته واتجهت به الى الكوخ. كانت ماري لويز قد عادت حاملة معها شماماً كبيراً ذهبياً. تناولت معها فنجان قهوة، ولما حان موعد عودتها الى القلعة أصرت ماري لويز على اعطائها شمامة. كانت كبيرة ناضجة حتى ان ايفين لم تعد راغبة في أخذها. هكذا وصلت القلعة وهي حاملة الشمامة على ذراعها والابتسامة على شفتيها.

دخلت من حاجز حديد مشغول في الباحة، وانتابها الذعر على الفور اذ وجدت دون جوان مشغولاً وفي رفقة حسناء جميلة ذات ثوب من الشيفون الارجواني وعلى رأسها قبعة عريضة تكشف عن وجه أبيض وعينين واسعتين سوداوين.

وقفت ايفين عند الحاجز حاملة الشمامة وتمنت لو انها من الضخامة بحيث تخفي ساقيها المتسختين برمال الشاطىء ووجهها الملوح بالشمس، بعيداً عن الجالسين تحت الشجرة المزهرة بلون ثوب الحسناء.

وببطء رفع دون جوان رأسه، وفي لحظة لا نهائية بدت عيناه كأنما تتركز على ايفين بكل شبابها وعدم اناقتها. كان يرتدي بدلة بيضاء زاد من نصوعها شعره الغزير الذي يلمع كجناح غراب.

في تأديب جم متعال، وقف مستعيناً بعصاه الابنوسية وحيّا ايفين وقال:

«الرجاء المجيء والتعرف على دونا راكيل فونسكا. كنت أحدثها عن تتلمذك على يد أبيها».

تقدمت ايفين بكل طاعة، وهي لا تزال تحمل الشمامة، وشعرت بعينين فاتنتين تفحصانها هي وثوبها القطني. فقالت راكيل بصوت دافىء مغناج وبلهجة حلوة:

«كم يسرني التعرف عليك يا آنسة بلغريم».

ثم ضحكت مبهورة وحولت نظرها الى المركيز.

«جوان، انك لم تقل لي ان الفتاة التي تشملها بوصايتك هكذا ابنة للطبيعة! ما أروعها بالشمامة وكل شيء الآن أفهم لماذا ترغب في وضعها تحت جناحك الرحيم».

هز دون جوان رأسه كما لو كان موافقاً على كل كلمة خرجت من بين شفتيها الحريريتين الورديتين. كلمات تحط من ايفين بسخرية مبطنة، الشمامة وكل شيء! كانت ايفين تريد ان تلقي بالشمامة بين الشجر، ولكنها عندما تذكرت ماري لويز وسرورها في اهدائها اياها، خجلت من نفسها للاهتمام بما قالته تلك الفتاة التي في غنى عنها وعن شمامتها. قالت ايفين:

«أتطلع الى مقابلة السيد فونسكا. عرفت من السيد المركيز ان اباك رجل علم وثقافة قديرة».

كانت محاولة متعمدة من ايفين للعودة، وقد شعرت الى جانبها بصلابة دون جوان وصفائه، وهو يقول لها:

«دونا راكيل باقية للغداء معنا في القلعة. لديك نصف ساعة يا ايفين كي تستعدي لمشاركتنا».

«أترغب في مشاركتي لكما؟».

قالت ايفين ذلك وكانت تأمل ان تعفى من عذاب الجلوس الى المائدة مع الفتاة الاسبانية ذات الثوب الأنيق والماكياج الكامل، والشعر الذي لم يحركه هواء البحر المالح في الشاطىء.

أجاب دون جوان:

«هذه رغبتي».

ولمحت ايفين ابتسامة تنفرج على شفتي دونا راكيل.

وعلّقت راكيل:

«رغبتك أمر مطاع ما دمت الوصي، أليس كذلك يا جوان؟»، ونطقت اسمه بعذوبة كأنما تعانقه.

«سأذهب واستعد، أرجو ان تأذنا لي».

وكادت ايفين ان تركض بعيداً عن وصيّها وضيفته، وكانت أظافرها تخدش الشمامة التي ألقت بها على الفراش عندما وصلت الى غرفتها. وتطلعت الى صورتها في مرآة خزانة الثياب فاذا بها تبدو كمتشردة صغيرة تعيش على الاحسان. فهل من الغرابة ان تتخذها راكيل فونسكا هدفاً للتسلية وبعض العبارات المبطنة؟

فتحت الخزانة وأخرجت التنورة الخضراء والبلوزة ذات الكشكشة.

وبينما كانت تغتسل وترتدي ثيابها تساءلت متى تصل ثيابها الجديدة من مدريد. كانت في البداية تمتنع في الموافقة على طلبها، اما الآن فهي مسرورة لأنه تم طلبها. وبما ان دون جوان وصي عليها فستضطر الى مقابلة اصدقائه وهو لا يرغب ان يحرج بسببها، ولا هي تريد ان تهينها فتيات لم يعرفن أبداً ما معنى ان تكون الفتاة يتيمة ثم خادمة تعمل من الفجر الى ان تأوي الى الفراش.

كان غداء بهيجاً بالنسبة الى راكيل التي كانت خبيرة بكل الأساليب التي تفتن الاسباني. فيها دلال وغنج وتظاهر بالرزانة، وخيل لايفين ان وصيها المترفع مسحور براكيل. كان يصغي اليها والابتسامة على شفتيه، كما ضحك عندما وصفت الحفل الذي حضرته على ظهر يخت يملكه ميتادور مشهور.

«كانت أزرار قميصه ماسية، يا جوان، وقال انه في المرة القادمة التي يزور فيها اشبيلية عليّ ان أراه وهو يصارع الثيران في الحلبة وقال سيقدم اليّ اذن الثور».

«يا للفظاعة!».

نطقت ايفين بالعبارة قبل ان تتمكن من حبسها. ثم تابعت:

«أقصد بالنسبة الى الثور، لا الأزرار الماسية».

نظرت اليها راكيل ببرود، وتركت شوكتها فوق طبقها المملوء بالحلوى، وقالت:

«من السخرية ان تظن البريطانية اننا قساة بسبب مصارعة الثيران. أليس صحيحاً ان مواطنيك يذهبون للصيد بستراتهم الحمراء؟ وأعتقد انهم يطاردون الثعلب او الأيل؟».

«أنا أكره الصيد كذلك».

قالت ايفين ذلك وقد شحب وجهها، لأنها تذكرت صوت الابواق في صباح ضبابي، وتذكرت موت أبيها في اصطبلات بيت ساندل الريفي. وتابعت:

«الذين يعتقدون ان الرياضة هي مهاجمة الطرائد وتمزيقها لا يشعرون بأي شيء سوى الاثارة من وراء قسوتهم، وأتمنى ان تحظر بلادي الصيد».

وتحدث دون جوان بهدوء مع شيء من الصرامة في صوته:

«ان مصارعة الثيران شيء مزر. لقد كنت أكره دائماً حجب عيون أحصنة البيكادور (الفارس الذي يهيّج الثور ويغرز الرماح في عنقه)».

«أنت تقول ذلك يا جوان لأن الحصان...».

وحسم جوان الموضوع قائلاً:

«لن نناقش المسألة يا راكيل».

ولاحظت ايفين انه ابتسم ولكن عينيه كانتا ساكنتين كالبحيرات التي قد تخفي أعماقها أشياء كثيرة غامضة. ثم غيّر الموضوع قائلاً:

«ستكون هناك حفلة موسيقية في نادي هيدالغو. وأظن ان ايفين قد تستمتع بها».

ونظرت راكيل عبر المائدة الى ايفين وهي بثوبها الريفي وشعرها المضفر ورقبتها النحيلة العارية من الحلي. وأبرزت الفتاة الاسبانية حليها وقالت برزانة:

«أمتأكد يا جوان ان موسيقانا ستعجب الآنسة بلغريم؟ انها تختلف عن موسيقى الغيتار الشعبية التي تسمعها في بلادها».

ونظر الى ايفين وسألها:

«هل انت من عشاق الموسيقى الشعبية؟».

«في الواقع يا سيدي لم يكن لدي الوقت لأعرف. بين حين وآخر كانت هناك حفلات رقص في البيت وكان يتم استئجار فرقة موسيقية للمناسبة، غير ان اصدقاء مخدومتي لم يكونوا من أفراد المجتمعات الدولية».

وابتسم، وفي لحظة محيرة بدا كما لو انها نفذت الى عينيه السوداوين ووجدت فيهما وعداً بالعطف والملاطفة.

«وأعتقد أننا نستطيع الاطمئنان يا راكيل ان ايفين لم تفقد بعد قيمها البريئة. وموسيقى عازف الغيتار مانريك كورتيز لن تضيع سدى».

وبدا وكأن قلب ايفين تخطى احدى دقاته. انها ستكون برفقة دون جوان عندما ترى ثانية الشاب الذي سماها فتاة الوحدة (سوليداد). هذه الحفلة المترقبة ستكون مثيرة!

٤- ليلتك سعيدة يا صغيرة

كان بيت الزهور أشبه بكهف ظليل كله شذى. وخيوط الشمس الذهبية تبرز الزهور المتعددة الألوان وبعض ثمار الزينة الصغيرة فوق شجر اللوتس. انه الملجأ الذي تلوذ به ايفين لتطالع كتاباً او لتستمتع بالكسل، وهي تنتظر على أحر من الجمر اللحظة التي يأخذها فيها المركيز الى السيد فونسكا. انها تتطلع الى التلمذة وتتوق لتعلم الفن وتاريخه وكل الأشياء التي ستوفر لها حياة العمل لأن العمل هو خبز الحياة كما يقولون.

كانت تحدث نفسها قائلة انها أشبه بتمثال الأنثى غالاتيا الذي نحته بغماليون، أو مثل اليزا دوليتل بطلة رواية «سيدتي الجميلة» التي صقل لهجتها السوقية وهذبها أستاذ مثابر عنيد.

غير ان فكرة الشخصية الأخيرة جعلتها تبتسم، وذلك لأن دون جوان ليس بالأستاذ العنيد. انه اسباني نبيل شملها بوصايته لأن في ذلك تسلية له.

اعتادت التنزه بمحاذاة الصخور عند ميناء الصيد الصغير. وكانت اذا انحسر الماء تجد على الشاطىء قناديل البحر وغيرها من الأصداف والأسماك القشرية. تلك القرية الصغيرة تسمى سان كاليز وفيها تراقب ايفين الصيادين وهم يسحبون شباكهم، او تتجول في الشوارع الضيقة المسقوفة بالقناطر، ثم تخرج منها الى حيث نور الشمس.

هناك دخان الأخشاب المشتعلة الذي ينتشر في الهواء، وطاحونة هواء لري المزروعات تزيد في سحر الجزيرة. وأطلال دير قديم كان معزولاً عن العالم، وكان رهبانه فيما مضى من الزمان يدافعون عن سكان الجزيرة

باطلاق النار من مدفع قديم على مراكب القراصنة الشراعية.

كل هذا فتن ايفين. فهي لم تكن ابداً فتاة مدينة، لهذا فهي تمرح في الرمال وتركض بمحاذاتها، وشعرها يتطاير من ورائها. كانت تحملق كالمخبلة الى القلعة الرابضة على الصخور، بجدرانها المقوسة وبأبراج زواياها المتوجة، وبرجها البحري بنوافذه الضيقة وهي تلمع تحت أشعة الشمس الذهبية.

كان دون جوان هناك في القلعة، سيد قلعتها التي لاذت اليها، رجل مهيب ومترفع يحب ان يعطي الانطباع بأنه غير عاطفي. وتساءلت ايفين عما اذا كان قد تعرّض للأذى عندما كان في ليبيا . . . وتذكرت انها يوم تحدثت عن الجياد غيّر الموضوع. لقد تعرّض لاصابته عندما كان يمتطي صهوة جواده. . . أهذا هو سبب خلو اصطبلات القلعة من الجياد؟

عندما عادت ايفين عصر ذلك اليوم الى القلعة، وجدت ان علب الثياب الجديدة قد وصلت في غيابها، وقد صفت في غرفتها فوق السرير وعلى الكراسي. وسرعان ما فضت اغلفتها وفتحتها بشوق لترى محتوياتها.

ضاعت يداها في ثياب رقيقة بيضاء وتفاحية، وأخرى داخلية في علبة فضية، واحتكت أصابعها بثياب من الجيرسيه والشيفون المتعدد الثنيات، وثياب مسائية من المخمل اللامع، وأخرى للشاطىء أو نهارية بسيطة منها ما هو بلون الشمس ومنها ما هو أخضر او برونزي يتناسب مع لون شعرها. وكانت هناك أحذية لكل المناسبات. . . وشيء في علبة طويلة تجرأت ولمسته.

مرت أصابعها المترددة على الفراء العسلي اللون. . . لا بد ان هناك خطأ. ان دون جوان لم يتحدث عن قطعة من الفراء، ومع ذلك جاءتها هذه القطعة، وهي ذات زر كبير من الفراء ايضا يجمعها على الكتفين ولها شرائط حريرية تحت الفراء لادخال الذراعين فيهما.

وضعتها على كتفيها وكأنها في حلم ونظرت الى المرآة وحلقت في صورتها. ايفين ترتدي فراء! ايفين الخادمة في ثياب الاميرات!

عبق وجهها كله بحمرة الخجل. انها لم تفهم دون جوان عندما قال انها ستكون تحت وصايته. لقد قال عازف الغيتار ماريك كورتيز ان الناس كانوا يتحدثون عنها. أتراها ببراءتها جعلت المركيز يفترض انها في مقابل

الثياب الجميلة ستنصاع لطلبات تتجاوز وصايته عليها؟

مزقت غلاف العلبة، وألقت به على الفراش وخرجت مسرعة من الغرفة. ولم تتوقف عن الجري الى أن وصلت غرفة مكتبه في أعلى البرج البحري. وطرقت الباب قبل ان تفقد أعصابها. كانت ستبلغه ان الثياب شيء غال جداً بالنسبة اليها. وانها انما كانت تريد أشياء بسيطة للغاية. عليها ان توضح له الأمور. . . انها فتاة رزينة، وليست واحدة يمكن شراؤها بفراء. . .

دعاها صوت عميق بالاسبانية للدخول، فأخذت نفساً عميقاً قبل ان تدير قبضة الباب وتدخل. انها غرفة دائرية. وللوهلة الاولى تذكرت الشخص النحيل الجالس وراء مكتب خشبي فخم. كان يرتدي قميصاً حريرياً مفتوح الرقبة، وشعره يبدو غير ممشط لكثرة ما عبث فيه بأصابعه، وسحابة دخان سيكاره تحيط به.

«اخيراً عرفت الطريق الى برج المراقبة».

ونهض على قدميه وأومأ اليها بالجلوس على مقعد قريب مكسو بالمخمل الأسود. وقد أطلق على غرفة مكتبه برج المراقبة لأنها كانت تستعمل قديماً لمراقبة سفن القراصنة الشراعية. وكان أحد أفراد أسرة ليون قرصاناً بحرياً معروفاً.

كشفت ابتسامته عن أسنانه البيضاء في لمحة وقال:

«ان تاريخ أسرتي كثيراً ما فتنني وأنا الآن أقوم بكتابته».

أشار الى مجموعة المخطوطات والمفكرات والمذكرات المفتوحة على مكتبه، وأضاف:

«انها عملية شائقة، فقد كان في العائلة عسكريون ومكتشفون وقراصنة وشعراء».

نظرت ايفين الى وجهه الاسمر الوسيم. يبدو رجلا شديد الجاذبية في قميصه الحريري الأبيض وبشعره المنفوش. وخفق قلبها. . . انه رجل يحمل في عروقه دم سلفه القرصان! ودفعها الخجل الى تحويل عينيها عنه والنظر الى غرفة مكتبه. كانت خالية من الزينة باستثناء الخزائن الجدرانية الحافلة بالتذكارات وبعض البنادق والتماثيل الخزفية الصغيرة لرجل كان وافر النشاط فيما مضى، وهناك أقنعة وأشياء من أماكن غريبة، وكتلة من

الصنف، لعلها أول قطعة استخرجها.

أعاد النظر اليها من خلال دخان سيكاره، فقالت:

«جاءت الثياب من مدريد».

«آمل أن تعجبك».

«دون جوان».

«نعم يا ايفين؟».

كان ترديده لاسمها، ونبرة صوته المخملية، والطريقة التي نظر بها اليها يجعلها تشعر بالذعر فقالت:

«لقد أرسلوا قطعة فراء للكتفين يا سيدي. هل أمرت بذلك؟».

«طبعاً فعلت».

كان في أعماق عينيه شيء غامض، وتابع:

«شال الفراء يناسب من هي في مثل عمرك. . . ألم يعجبك يا آنسة؟».

«انه جميل، ولكني لا استطيع قبوله!».

«لم لا؟».

«انه غال جداً».

«اذا اصبح الفراء على كتفيك فلن أسأل عن ثمنه».

«ولكني أنا سأسأل يا سيدي!».

«وأنت يا آنسة؟».

وسحب نفساً من سيكاره ثم قال:

«وهل تتوقعين دفع قيمة الثياب كذلك؟».

أجابت: «الفراء عادة يدفع ثمنه مرتين».

ودق قلبها بجنون، لأن وجهه كان ساكناً، ولكن النار كانت تتأجج في عينيه. وأمسكت بحافة المقعد وكانت على وشك الخروج.

فقال مازحاً:

«اذن لقد خطرت لك نيتي الخبيثة، وأنت فتاة لا تشترى بالفراء. يا لخيبة أمل سيد القلعة. ماذا تراه سيفعل الآن لاغراء الفتاة البريئة. . . هل سيتغلب على وساوسها في الحلقة الثانية من الرواية؟».

تطلعت اليه ايفين وحمرة الخجل تسري في وجهها. نفض رماد سيكاره في منفضة برونزية وقال:

«أي روايات غريبة كانت السيدة ساندل تأمرك بقراءتها لها. يا صغيرتي لقد اعطيتك الثياب الجديدة لأنك في حاجة اليها، ولأن الفتيات الصغيرات ينبغي ان يتوفر لهن أشياء جميلة. أظن ان احداً لم يعطك هدية منذ وقت طويل، ولهذا فأنت في شك من الهدايا. لا حاجة لذلك. الفراء ضروري اذا ذهبنا الى المسرح او للعشاء مع اصدقائي. وبما انك تحت وصايتي فأنا أريد ان تكوني أنيقة».

ابتلعت انتقاده لظنونها وقالت:

«آسفة لغباوتي يا سيدي».

«أنا لا ألومك، فقد اشتغلت لدى امرأة غنية زرعت في رأسك ان الحب بين الكبار سلعة، شيء يباع ويشترى. وأنا شخصياً اعرف ان هناك أناساً تشربوا هذه الفكرة. ان أسرة أبي لم تستطع ابداً فهم أبي الذي آثر الحب على الاقتران بفتاة باردة غنية. ولم يغفروا له ذلك الى يوم مماته».

استقرت عيناه طويلاً على قطعة الفضة التي استخرجها من البراري الموحشة في شبابه.

«كانوا يسمونني ابن الساحرة. وكانوا يقولون ان أمي قد نفخت في ابنهم روح الغجر... ولاموها عندما وافته المنية. كان أهلها من المحازبين، وقد حاربت أمي وأبي في تلال اسبانيا مع المحازبين الى ان قتل أبي».

تعلقت عينا ابن روزاليتا بعيني ايفين وأسرتها. ثم نهض المركيز واقفاً وبمعاونة عصاه مشى بعرج الى نافذة من نوافذ برجه البحري.

قال وهو يفتح النافذة وهواء المساء يندفع منها:

«تعالي وتأملي غروب الشمس في البحر».

تقدمت ايفين وهي خجلى، لكي تنظر الى الغروب. لهيب عظيم يحترق ويشق طريقه في المياه البعيدة ويضيء بألوانه أطراف الأمواج الحريرية. وتنفست قائلة:

«في منتهى الروعة والقسوة». ثم تابعت «ان قلعتك مصانة وهي لا بد قديمة جداً».

«نحو مئة سنة يا آنسة».

ولمعت عيناه عندما وجد انه شيء مسل ان تظن مراهقة جميلة الساقين انه واقع في غرامها. وأضاف:

«كانت القلعة الأصلية بناء غير منتظم. ولكني أرى ان المبنى الحالي متناسق وأكثر جاذبية، ما رأيك؟».

«أنا أحبها».

خرجت العبارة دافئة من بين شفتيها، وزادت:

«ما كان يدور بخلدي ابداً ان أعيش في قلعة. ما أشبه ذلك بحكاية خرافية».

«[illegible] الغول؟».

«كلا...».

«لا داعي للمجاملة. لماذا لا تجدني فتاة صغيرة شخصاً منحوساً بساقه العرجاء واجتراره للماضي».

ابتعد عنها بدون ان ينتظر جواباً وعرج عائداً الى مكتبه. وقال:

«غداً مساء نتناول العشاء في النادي مع السيد فونسكا وابنته. وأحب ان ترتدي شيئاً من الثياب الجديدة».

«حسناً يا سيدي».

سمعت أمر الانصراف في صوته ومشت نحو باب برجه. ثم توقفت وعادت تنظر اليه.

«شكراً للثياب الجميلة يا دون جوان. أنا ممتنة حقاً».

«انها ضرورية لحياتك الجديدة» قال ذلك بوضوح وهو يدرس ورقة مخطوطة، وأضاف:

«سأشتغل معظم هذا المساء. في رعاية الله».

رافقتها العبارة الأخيرة بالاسبانية الى ان وصلت غرفتها، حيث مضت تملأ خزانة الملابس بثيابها الجديدة وممتلكاتها الرائعة. وتأملت ثوباً مخملياً نصفه السفلي على شكل جرس ثم التفتت باهتمام الى ثوب من الشيفون ذي تكسيرات من كتفيه الى ذيله. لم يسبق لها في حياتها ان عانت من مشكلة اختيار ثوب للذهاب الى العشاء مع رجل في ناد ليلي فخم. كان أشبه بحلم، ولكنها عندما قرصت جسمها أحست بألم فعلي.

الثياب حقيقية... والقلعة حقيقية... وفي الصباح لن تستيقظ على صوت جرس ايدا ساندل. ذلك كله كان صفحة ماضية... وهذا كله صفحة جديدة من حياتها الآتية.

وبعد ان تناولت العشاء وحدها، جلست عند نافذة غرفة نومها وأخذت تراقب النجوم اللامعة المطلة على البحر. وتنشقت رائحة تعنع الليل وتساءلت ماذا سيقول عنها ماتريك كورتيز مساء الغد وهي في ثيابها الرائعة.

خفق قلبها بهدوء من الاثارة. ان ماتريك رآها جذابة، وعندما لمست شعرها، تذكرت كيف كان الشبان على سطح الباخرة يتجاهلونها فلا يعيرونها نظرة ثانية. لقد كان يؤذيها ان تكون زهرة حائط. وذلك جعلها تشعر بالوحدة وأنه غير مرغوب فيها، وهي تراقب الفتيات الاخريات يرقصن مع الشباب، وأحياناً كانت تبكي في سكون الليل، وتاقت لشخص يقول لها أشياء لطيفة.

وجاء ماتريك وحدثها بما تاقت اليه، ولعله عندما سيراها سيطلب مراقصتها.

أقبل المساء التالي واختارت ثوباً مخملياً أحبت لون قماشه الذهبي اللامع، وخاصة السترة القصيرة المطرزة. وموجت شعرها الذي غسلته في الصباح، وشدته في أعلاه، ووضعت على وجهها القليل من البودرة، واحمر الشفاة وظلا خفيفاً للعين، وكان محل الأزياء قد أرسل لها مع الثياب الجديدة مجموعة من مواد التجميل. وراعتها فتنة نضوجها. وظهر بريق عينيها الذي كانت تحجبه النظارات فيما مضى، وبضحكة سعيدة انحنت لخيالها في المرآة. سرها انها ستبدو جميلة . . . أمام ماتريك . . . والآن عليها ان تهبط الدرج وتقدم نفسها للوصي عليها.

كانت أصابعها تمسك محفظة يدها المخملية بشيء من الاضطراب وهي في طريقها الى القاعة. وقبل ان تصل الى أسفل الدرج الحلزوني لمحت قامة وصيها السمراء عند فتحة القاعة المؤدية للمخارج. وكان يعلوها مصباح يلقي عليه بضوئه ذي المظلة كما لو كان على تمثال . . . ولم يتحرك ولم يتكلم الا بعد ان التقت عينا ايفين به.

وتوقفت ايفين عند الدرج وقربت محفظة يدها الى قلبها.

«أوه، مساء الخير يا سيدي».

مد يده اليها، فأقبلت صوبه في تردد. وقال:

«أصبحت ناضجة جداً».

وعندما أمسك بيدها ظنت انه سيرفعها ويقبلها. ولكنه لم يفعل، بل جذبها ناحية الضوء وتفحص وجهها، ثم قال:

«احمر الشفاة زائد، تعالي!».

وأخذها بيده الى الصالون.

وتأمل مرآة على الحائط، وقال آمراً:

«امسحي الأحمر».

وأطاعته، ولكنها كانت ترتعد في دخيلة نفسها. هل كانت تظن ان هذا الرجل سيعجب بالثوب الذي اشتراه؟ يا له من أمل كاذب! ان كل ما يهمه هو ان تشرّفه أمام اصدقائه.

«أهكذا أفضل يا سيدي؟».

واستدارت لتواجهه، فأثار فيها كل ارتباك الشباب عندما نظر اليها نظرة شاملة. لم تحظ منه بذرة من ابتسامة وقد انحنى على عصاه وأخذ يتفحصها وكأنها لوحة على حائط لا فتاة حية ينبض قلبها بسرعة.

استقرت عيناه على عنقها الصغير العاري. وقال:

«تزيين الصغيرات باللآلىء أشبه بتهذيب الزنبق. ولكني أعتقد انك ربما تحبين هذه».

وأخرج من جيبه علبة حلي وأعطاها اياها. فتحت غطاءها بأصابع مرتعشة والتقطت أنفاسها بعدما رأت قلادة ذهبية مجدولة تزدان هنا وهناك بوريقات ناعمة من أحجار كريمة خضراء وقالت:

«انها نادرة وقد أموت من الخوف اذا فقدتها».

كانت على وشك ان تغلق العلبة عندما مد يده وأخرج القلادة ثم قال:

«تعالي هنا».

ولم تجرؤ على عدم طاعته. وأحست بأنفاسه بعدما أصبحت القلادة حول رقبتها وأصابعه تربط مشبكها.

«استديري يا ايفين».

استدارت ثم ضحكت ضحكة عصبية مفاجئة وقالت:

«آه لو رأتني الآن السيدة ساندل!».

«ماذا يمكن أن تقول؟».

«لا بد ان المفاجأة قد تعقد لسانها».

«حقاً يا ايفين».

«من قبل، لم يكن عندي أي ثوب جميل... وكنت دائماً أبدو شنيعة في لون البيج، وكانت ترغمني على وضع نظارة».

أخذ وجهها بيده وكأنه زهرة وقال:

«ان بصرك لا يبدو ضعيفاً. ماذا حدث للنظارة؟».

«ضاعت في البحر».

«عليك أن تتركي الذكريات الحزينة تضيع أيضا يا آنسة. أعدك بانك لن تلبسي اللون البيج اثناء وجودك في القلعة».

«أنا ممتنة لعطفك يا سيدي».

«لا أريد شكراً، وأنا لست عطوفاً بوجه خاص».

وكانت أسيرة لعينيه لحظة، ثم ترك وجهها وقال:

«هيا، أمامنا ستة أميال للوصول الى بورتو دي ليون، ولا أريد ان نتأخر عن راكيل وأبيها».

تقدمته ايفين وهما يخرجان من الغرفة ثم من القلعة. وفتح السائق باب السيارة فدخلت ايفين وكأنما تسمع همس ثوبها المخملي، وتبعها دون جوان بارتباك بسبب عرجه، ووضعت عصاه على أرض السيارة. واستعادتها ايفين بسرعة، وجفلت عندما قبضت أصابعه على أصابعها وعصاه. وشكرها باحترام. وبدا وجهه جامداً كقناع قاس عندما سقط عليه ضوء مصباح سقف السيارة.

انكمشت ايفين في ركن السيارة بعد الخروج من بوابة القلعة، وبدت فتية القوام في ثوبها وقلادتها.

شعرت وكأنها لن تفهم هذا الرجل ابداً، فهو حيناً يبدو طيباً يفيض بالانسانية، وحيناً مترفعاً لا سبيل للدنو منه، انه اعطاها المسكن والمأكل والملبس، ولكنه يمنعها من أن تقدم له أي شيء في المقابل... حتى التعاطف والمحبة.

وتأملت ملامحه الجانبية فبدت لها جامدة كأنما هو رجل من حجر.

لم تكن ايفين تدري ان نادي هيدالغو سيكون بمثل هذه العظمة! كانت هناك عدة سيارات متوقفة أمامه، وعدة نوافذ طويلة تشعشع بضوء الشمعدانات البلورية. وهواء النادي يعبق بعطور النساء وموسيقى

الاوركسترا.

استقبل المركيز دي ليون والفتاة التي في صحبته بالترحاب ونظر الناس اليهما الى ان اوصلهما الخدم الى مائدتهما التي كان يشغلها رجل ذو شعر فضي وذقن وقور، ومعه راكيل فونسكا الجميلة.

«شكراً لمجيئك».

ووقف السيد فونسكا، ولمحت ايفين عينيه الودودتين فزال اضطرابها وانحنى على يدها عندما قدمها المركيز وكان يبدو ألطف من ابنته التي كانت تتفحص ثوب ايفين المخملي وقلادتها الذهبية بعينين ثاقبتين.

وقالت راكيل بصوتها الدافىء:

«جوان، من الصعب ان أتبين فتاتك التي شملتها بوصايتك كما كانت آخر مرة رأيتها. تصور يا أبي انها كانت مسلية للغاية، عندما جاءت من الشاطىء تحمل شمامة ضخمة وحسبتها تلميذة مدرسة. الليلة تبدو أنيقة للغاية... ما أروع ما تفعله ثياب محلات غران فيا للمرأة».

ابتسمت بعذوبة بعدما استقر الجميع في مقاعدهم. وتحدث دون جوان قائلا:

«الليلة ستطيل السهرة قليلا».

تطلعت راكيل عبر المائدة الى ايفين وقالت:

«سيكون هذا ممتعاً. ولكن لماذا هذه الليلة بالذات. أهو عيد ميلادك يا عزيزتي؟».

أجابت ايفين:

«كلا».

واشتدت قبضة يدها في حجرها ونظرت الى السيد فونسكا كأنما تسأله العون، ووجدته طيباً سمحاً مما جعلها تشعر بالاطمئنان، وتابعت:

«على الأقل أشعر كأنما ولدت من جديد، فكل هذا جديد بالنسبة الي».

وهزت راكيل بيدها مروحتها التي كان رسم ورودها يتناسب مع لون ثوبها، وقال:

«أظن انك كنت مرافقة، أليس كذلك؟».

وصححت ايفين قول راكيل وهي تدرك انها على علم بأمرها ولكنها تجبرها على الجهر بذلك، فقالت:

«مرافقة وخادمة».
ابتسم لها السيد فونسكا وقال:
«لا عجب اذا كان هذا كله يبدو لك أشبه بمولد جديد. ان جوان يرغب ان أعلمك الاسبانية وأشياء أخرى وأظن انه سيسرني ان أكون مدرساً لفتاة جذابة مثلك».
تمنت لو استطاعت ان تحتضنه في هذه اللحظة، وقالت:
«أنا تواقة للتعلم على يديك يا سيدي. وأعدك بانني سأكون تلميذة متعطشة للعلم».
ضحكت راكيل وغازلت عيناها من فوق مروحتها دون جوان وقالت:
«أصبح عندك في العائلة يا صديقي عاشقة علم. وسيحب أبي شحنها بالمعرفة، ولكني أرى ان الأفضل ان تستمتع بالحياة وأن تجمع حولها المحبين».
وضحك السيد فونسكا وقال:
«ترى ماذا يحدث يا جوان عندما يسمح الاسباني لابنته بأن تتحرر؟ انها تتجه فوراً الى الطراز الاسباني وتفكر فقط في الغرام».
وقالت راكيل في دلال:
«وأي شيء ألطف من التفكير في الغرام؟ بالطبع اذا كانت الفتاة عادية، فمن الأفضل لها ان تكون ماهرة. وأنا لم أكن ماهرة جداً».
رأت ايفين، من التلميحات فقط، انها بالنسبة الى الفتاة الاسبانية تبدو ساذجة ومرتبكة، وغير معتادة على الظهور بمظهر المرتدية ثوباً غالياً من محلات غران فيا. حدثت نفسها قائلة ان الاكليل الذي تزين به رأسها يبدو غريباً، وشفتيها باهتتين. أيعتقد دون جوان أن شفتي راكيل ورديتان بطبيعتهما؟
كان قدوم الخادم بالمقبلات قد ساعد على فتح مجالات أخرى لحديث خفيف بهيج. وتوالت الأطباق الشهية بعد ذلك مما جعل وقت العشاء ساراً وممتعاً، وايفين تستمع لما يدور من كلمة هنا وأخرى هناك. وعزفت الاوركسترا وامتلأت حلبة الرقص. وكانت تعرف ان ماريك كورتيز لا بد أن يظهر ويسحر الجو بصوته وغيتاره.
هذا التفكير أضاء عينيها، وفي لحظة أدركت ان دون جوان كان ينظر

اليها مباشرة. سألها:
«أيسرك عزف الاوركسترا؟».
تحركت وابتسمت له قائلة:
«انها تجعل المرء يشعر بالارتياح والسرور».
واتجه اهتمامها بعد ذلك الى حلبة الرقص على مقربة من الاوركسترا حيث ظهر وسط عاصفة من التصفيق شاب يرتدي سروالاً ضيقاً قاتم مرصعاً فيه كشكشات [illegible]، ونظر حواليه، وشعرت ايفين باثارة شديدة عندما التقت عيناه بعينيها. ابتسم وشعرت كأن كل فرد قد عرف انه ابتسم لها وحدها.
«سيداتي سادتي، سأغني أغنية حب قديمة من أغاني اشبيلية».
واستند الى أحد الأعمدة واحتضن غيتاره، وبدأت الأضواء تخفت، ثم قال:
«تخيلوا شرفة وفتاة، وتحتها في الليل عاشق يعرف ان هناك رجلاً آخر يحول بينه وبين رغبته».
أخذ ماريك يعزف على غيتاره، وبدا كأن الغيتار قد دبت فيه الحياة بين يديه. وشمل المكان سكون مطبق فلا قرقعة سكاكين او ملاعق او همسات زبائن. من قبل أحست ايفين عند الشاطىء بسحر صوته وموسيقاه. والليلة اختلطت موسيقاه بسهرة عشاء لم تتعود على مثلها، وأحست كأنها هي فتاة الشرفة في الأغنية. فتاة مرغوبة وممزقة بين عاطفتين.
ووسط التصفيق الذي أعقب الأغنية، لاحظت راكيل انه كان جذاباً للغاية. وكانت ايفين تحس بنظراتها، فجفلت كأن الفتاة الأخرى لديها القوة على افساد حلمها.
مال السيد فونسكا يحاول تقديم شعلة لجليسه وقال:
«انه موسيقي بارع يا جوان. ولكن لا شك ان الشابتين هنا تهتمان بشخصيته الجذابة».
أحاط الدخان بعيني دون جوان، وشعرت ايفين بأنه يتطلع اليها، بينما أخذ ماريك يعزف بعض الموسيقى الاسبانية، وكانت قطعة موسيقية مرحة مليئة بالهيام الاسباني. وابتعد عن العمود الذي كان يستند اليه وراح يتنقل بين الموائد، وقفز قلب ايفين الى حلقها عندما توقف عند مائدتهم وغنى

شطراً من الأغنية خصيصاً لها . . . ثم ابتعد.

قالت راكيل وهي تهز مروحتها كجناح طير عنيف:

«ان ايفين كانت تنظر اليه منذ اللحظة التي بدأ يغني فيها».

وظلت ايفين لحظة صامتة، ثم نظرت الى راكيل وشعرت بدافع بدائي لشدّها من شعرها، وقالت:

«الواقع اني اعرفه، لقد التقيت به عند الشاطىء في اليوم السابق، وأصبحنا صديقين».

أضيئت الشمعدانات في هذه اللحظة وكتم التصفيق للمغني كل كلام لمدة دقائق. ولكن نظرة راكيل كانت واضحة المعاني، وأدركت ايفين بتحدٍ ان عيني المركيز قد ضاقتا.

وبعد ان هدأت عاصفة التصفيق قال دون جوان:

«لماذا لم تدعي السيد كورتيز الى القلعة؟ العادة لدى الاسبان أن يقدم الشاب نفسه رسمياً الى والد الفتاة او وصيها».

أجابت:

«انني بريطانية. ومثل هذه العادات الفكتورية قد بطلت في بلادي».

وفي الحال وكأنما شعلة تلتهب في عمق عينيه قال:

«عليك اتباع عاداتنا أثناء وجودك ضيفة في بيتي، في المرة التالية التي يقترب فيها شاب منك. . . .».

وتوقف في هذه اللحظة، اذ عندما بدأت الاوركسترا تعزف موسيقى راقصة، اقترب ماريك كورتيز من مائدتهم مرة أخرى. كان يرتدي جاكيت للسهرة وعلت وجهه مسحة مهذبة وانحنى أمام المركيز وضيوفه. وسأل:

«هل يسمح لي السيد المركيز بأن اطلب الآنسة الانكليزية للرقص؟ لقد التقينا، ولكني انتهز الفرصة لأقدم نفسي رسمياً لوصيها».

وبدت المسألة بالنسبة الى ايفين كأنها تشاهد مشهداً في مسرحية من مسافة، وانها واحدة من الجمهور لا واحدة من النجوم. رأت دون جوان ينفض رماد سيكاره. ومروحة راكيل تتوقف كأنما هي جناح مكسور. وقال دون جوان:

«لا بد أن اهنئك يا سيد كورتيز على مهارتك كعازف. لقد استمتعنا

كثيراً بعزفك. ولو علمت من قبل انك تعرف ضيفتي لدعوتك لمشاركتنا العشاء. ولعله يمكنك الآن؟».

ونظر ماريك الى ايفين وابتسم في عينيها وقال:

«السيد المركيز كريم للغاية. ويكفيني جداً ان تسمح لي بالرقص مع الآنسة».

واتجه دون جوان بنظره مباشرة الى ايفين وسألها:

«أترغبين في الرقص؟».

وقالت مرتبكة:

«أود حقاً، ولكني لا أجيد ذلك تماماً».

«دعيني أعلمك يا آنسة»، وساعدها على النهوض من مقعدها وتقدم بها الى حلبة الرقص، وهناك أحاطها بذراعيه وهمس «مرحباً سوليداد. يا الهي، كنت أشبه بمن يتقدم الى عرين الاسد لآخذك من الوصي العنيد!».

«اعرف ماذا تعني».

ثم ضحكت في خجل واندمجت مع ايقاع الموسيقى ووجدت ماريك رفيقاً ممتازاً. انه يحيطها بذراعين قويتين، وكتفه عند الارتفاع المناسب تحميها من نظرات الوصي عليها ونظرات راكيل فونسكا. وقال يغيظها مداعباً:

«قلت انك لا تحسنين الرقص. اظن انك فتاة غامضة، أخبريني مع من رقصت من قبل؟».

«مع كبير الخدم، في سهرة العيد يوم كنت خادمة، وكان ذلك شرفاً لأنه فضلني على غيري».

استمرت ترقص مع ماريك نحو ساعة لم يغادرا فيها الحلبة. وعندما غادراها وجدت نفسها في الشرفة معه، النجوم تلمع في السماء، ورأسها وقلبها في دوامة. ضحكت بنعومة وقالت:

«لم أسعد ابداً بوقت ممتع كهذا! هل انتصف الليل؟ وهل عليّ ان ابتعد سريعاً قبل ان تزول اناقتي؟».

أمسكها ماريك من ذقنها كأنما يتأمل عينيها، وفي الحال وجدت نفسها تتركه وتهبط درج الشرفة الى الحديقة. وتبعها وسرعان ما اختفيا وسط شجر اللوز وأحواض الزهور. هنا حيث الظلال والورود تقوم كحاجز بينها وبين

دون جوان وسلطانه عليها. وأمسك بها مانريك عند شجرة وقال:

«أنت رقيقة للغاية، أليس كذلك؟ ولكني معجب بك كما أنت بغير تصنع».

ومع ان قلبها كان يدق بسرعة من كثرة الرقص، الا انها لم تكن مضطربة مع مانريك مثلما هي الحال عندما تكون مع دون جوان. سألته:

«أليست صداقتنا جديدة للتحدث عن الاعجاب؟».

«كلا، ان الشباب الاسبان يرددون دائماً أحاديث الاعجاب والهوى».

«أنا لست اسبانية يا سيدي».

«تعنين انك لم تسمعي مثل هذا الكلام من الشباب؟».

وهزت رأسها مبتسمة، فهي حتى الليلة لم ترقص مع شاب، ولم تعرف اثارة الخلوة مع شخص جذاب جريء. ان سهم الحب لم يعرف الطريق اليها بعد.

«لقد كنت محاطة بحماية كبيرة».

«كنت معزولة، هذه الكلمة أفضل».

قالت ذلك وداعبت بأصابعها ثوبها المخملي، وتابعت:

«من الغرابة ان اجد نفسي في ثياب كهذه. كأنني متنكرة في ثياب فتاة أخرى».

تطلّع مانريك اليها في الحديقة شبه المعتمة، وقال:

«لكنك لست... المركيز غني وقد جعل نفسه وصياً عليك. هذه القلادة مطعمة بالماس والزمرد».

لمست أصابعه القلادة وارتعشت لسبب غريب. وقالت:

«انا ممتنة له، ولكني أشعر كأنني مملوكة له».

كانت يداه تمسكان بها عندما سألها:

«ماذا تعنين؟ انه يعاملك مثل ابنته، أليس كذلك؟».

«أجل...».

«اذن لماذا تتحدثين عن الامتلاك. اننا نستخدم الكلمة عندما نعني شيئاً آخر معناه أنا أريدك كامرأة وليس كابنة!».

تملصت من بين يديه وقالت:

«لا تقل هذا! لم أقصد شيئاً كهذا. دون جوان وصي عليّ، وهو يحمل

مسألة عمل الجد على نحو كبير جداً. لقد طلب لي من اسبانيا مشرفة وصي، وقبل ان أعقد صداقة مع من أريد عليّ ان اقدمه له للموافقة!».

ضحك مانريك وقال:

«الآن فهمت! هذا هو الحال مع الأب او الوصي. وعليك ان تتوقعي من المركيز ان يعاملك على هذا النحو، أصبحت الآن مؤهلة تماماً».

انتابتها الحيرة فسألته:

«ماذا تعني. التحدث عن شخص انه مؤهل يتضمن الزواج والمهر.

وكذلك...».

لمس مانريك خدها كأنه يهدىء من روعها وقال:

«لقد تكررت الآن. يا عزيزتي، ما دمت تحت وصاية المركيز فانك تحصلين منه على مساعدات كثيرة. أنت تعرفين هذا بالتأكيد. كما ان الاسباني يتحمل مسؤولياته بصورة جادة».

«كل ما أريده هو التعلم!».

«يا لك من لطيفة وبريئة! كل ما تريدينه هو تعلّم احتياجات الفؤاد. دعيني أكون معلمك».

ثم حاول ان يقربها منه ابتعدت وقالت:

«كلا يا مانريك!».

ثم جمدت وصمتت اذ سمعت وقع خطوات على المشى الممتد بين الشجر وقالت:

«انه هو».

«ايفين، اين أنت؟».

لم تستطع الرد عليه، ولم يحرك مانريك ساكناً ايضا. كانا يقفان على مقربة من بعضهما في ظلام الحديقة.

وراح دون جوان يفرق أغصان الشجر بعصاه وهو يتقدم منهما قائلاً:

«نحن على وشك العودة الى البيت».

كان صوته مثل وجهه بلا تعبير، ولكنه أضاف موجهاً الكلام الى العازف:

«أرجو ان تترك ضيفتي يا سيد، ويكفيها كل هذه الاثارة في ليلة واحدة».

بدت ايفين شاحبة ومذنبة. وتنحى دون جوان جانباً حتى تتقدمه، وسمعته يقول لماتريك:

«في المستقبل عليك ان تتذكر انني وصي على ايفين. ومثل هذه الخلوات في الظلام تضطرني لمنعها من رؤ ياك».

استدارت كي تحتج ولكنه لوّح لها بالسير في المشى، ولم تتجرأ على عدم اطاعته. انه طويل وأسمر وجاد. وجمعت ذيل ثوبها وجرت متقدمة عنه. شعرت كأنها طفل ضبط متلبساً بسلوك سيء، وحاولت وهما في السيارة في الطريق الى البيت ان تدافع عن براءتها، فقالت وقد ركزت عينيها على الزجاج الذي يفصل بينهما وبين سائق السيارة:

«لم يحدث بيننا أي عناق».

«أنا متأكد أن ذلك كان حتماً سيحدث اذا تأخرت عن المجيء».

«مثل عم من الزمن الفكتوري!».

«أهذا هو شعورك؟».

وعمقت ابتسامة صغيرة خطوط السخرية المحيطة بفمه، وأضاف:

«البراءة تغمرك يا ايفين، ولكني أعرف الشبان الاسبان وخبرتهم في المغازلة. ولا أريدك ان تخلطي بين الحديث الصريح لموسيقي شاب وسيم والأحاسيس العميقة الصامتة. أود ان تزداد معرفتك بالاسبان وبعاداتهم، وبعد ذلك لن تحتاجي لحماية عم من الزمن الفكتوري».

وعضت ايفين شفتها وقالت:

«آسفة ان اكون قد اتعبتك وأصبحت عبئاً عليك يا سيدي».

«أنت تضيفين كلمات لم أستعملها يا آنسة. تقصدين تصرفي، عندما وجدتك مع هذا الشاب في ظلام الحديقة».

«لقد كنت معه في حلبة الرقص... وهل هناك فرق كبير؟».

«يا صغيرتي العزيزة، اذا كنت لا تعرفين الفرق، فهناك اذن نواحي أخرى من التعلم ينبغي أخذها بعين الاعتبار».

نظرت اليه بسرعة ولمحت في عينيه السوداوين هذ البريق من الدعابة غير المتناغمة، وهذا ما جعلها تجفل اذ ان وجهه لم يكن ينم عن شيء، بل كان أشبه بنور الشمس المتجمعة في قاع بركة. كان ذلك البريق علامة للشيطنة... وتذكيراً بأن جوان دي ليون لم يكن دائماً رجلا اعرج.

«أنت تمثل الطاغية الحديدي لكي تغيظني».

ضم يديه على قمة عصاه الفضية وقال:

«ليس تماماً. لقد عنيت ما قلته لماتريك كورتيز. يمكنه ان يكون صديقاً لك لأنك في حاجة الى شاب تتحدثين اليه وترقصين معه... ولكني لن أسمح بعلاقة غرام. هل فهمت؟».

نظرت الى ملامحه الجانبية وشعره الدخاني عند السوالف. كان مزيج [illegible] والنضوج مزعجاً. وكانت تود لو يكون مختلفاً. كانت تود ان يكون هذا الرجل بمثابة الأب لها. ولهذا قالت:

«نعم، فهمت يا سيدي. سأحاول فعل ما تشير به عليّ، ولكن ماذا عن شعوري؟».

نظر اليها عن عمد وقال:

«شعورك!».

«لا يمكنك منعي من أن أحب».

«واذا كنت تتحدثين عن غرام المراهقة السريع الزوال، فهذا شيء علينا جميعاً ان نعاني منه الى ان يكتمل نمونا ونضجنا».

قالت بهدوء:

«لقد اكتمل نموي منذ بلغت الخامسة عشرة وفي حالتي، لا أظن ان ماتريك يود ان يظل صديقاً لي بعد الذي قلته له».

نظر اليها دون جوان وقال:

«الاسبان ليسوا بمثل هذه الحساسية. وهم أكثر اصراراً عندما يتطلعون الى هدف».

وابتسمت نصف ابتسامة وقالت:

«مثل دون كيشوت مثلا؟».

وتلاقت عيونهم:

«بالضبط. هل قرأت مغامراته؟».

«ضمن نطاق مطالعاتي قصص الحب للسيدة ساندل».

ابتسم وقال:

«مكتبتي في البرج البحري تزخر بكتب انكليزية كثيرة. وهي لك للمطالعة والمتعة».

شكرته وفكرت كيف تحول بلباقة من التحدث عن الرومانسية الى التعلم. يمكنها ان تظل صديقة لمانريك، ولكن المركيز لا يرى انها ناضجة بما فيه الكفاية للحب.

اخذت تحلم قليلا أحلام الفتيات ثم استولى عليها النوم. ولما وصلت السيارة فناء القلعة كانت يد تلمس شعرها وسمعت صوتاً يهمس باسمها:

«وصلنا البيت يا ايفين».

قالت والنعاس ملء عينيها:

«البيت؟».

وعندما فتحت عينيها كان رأسها يستند على كتف مضيفها ووجهه قريباً منها. وفي أقل من ثانية أسرعت بالابتعاد عن وجهه.

«لقد غلبك النوم بعد كل هذا الرقص مع مانريك الوسيم. هيا بنا. وتذكري ان غداً بداية دروسك مع السيد فونسكا».

وبعدما خرجت من السيارة شبه نائمة، تبعت دون جوان على الدرج المؤدي الى باب القلعة الواسع. وبعدما دخلا القلعة انحنى لها المركيز مودعاً:

«ليلتك سعيدة يا تلميذة».

٥- عيون لا تنام

كانت فيللا فونسكا تطل على مياه الميناء الزرقاء الحريرية، حيث مراكب الصيد راسية الى جانب الجدران التي يبللها البحر والتي شيدت من فوقها البيوت البيضاء. ركب دون جوان السيارة مع ايفين الى بيت فونسكا، ولكنها علمت عند وصولهما ان ركوبه معها لم يكن رغبة منه للاطمئنان على سلامة وصولها الى مدرستها. بل لأن دونا راكيل في انتظاره، تبدو كزهرة جميلة ندية، في ثوب من الدانتيل الابيض، وقبعة عريضة ذات وردة تحت حافتها. كانت هي ودون جوان ذاهبين من الجزيرة الى الارض الأم (اسبانيا) لقضاء اليوم. راكيل من اجل التبضع والمركيز لاجراء بعض الاعمال.

وقبل ذهابهما تناول الجميع الشاي بالليمون المبرد في باحة الفيللا. وكانت الباحة مكاناً به زوايا رومانسية واشجار زيتون قديمة ملتوية. وهناك مقعد يحيط باحدى الاشجار، جلست فوقه راكيل بقبعتها العريضة، راضية لأن الرجل الاسمر النحيل ذا البدلة البيضاء الانيقة سيكون لها وحدها طوال يوم كامل. قال لها:

«انت اشبه بلوحة للرسام الفرنسي رينوار».

ابتسمت واستقرت عيناها لحظة على ايفين في ثوبها الاصفر البسيط ذي الياقة الفراشية البيضاء. ثوب قصير بلا اكمام يكشف عن ذراعيها وساقيها. وشعرها الداكن الاحمر ينساب فوق احد كتفيها، وقد ربطته بشريطة خضراء.

وسألته راكيل وهي ترف باهدابها ناظرة اليه، كأنما تبعث اليه بلغة

اهدايا احدى الرسائل السرية المتبادلة بين المحبين:

«جوان، واي رسام قد يكون رسم ضيفتك؟».

مال بيدلته البيضاء عند شجرة قائمة، بينما كان السيد فونسكا يجلس مرتاحاً فوق كرسي من الاغصان المجدولة يدخن سيكارة بفم من العظم الملون. واجاب فونسكا على السؤال نيابة عن دون جوان الذي لا رأي له على ما يبدو بخصوص ضيفته فقال:

«الرسام الفرنسي ديغاس، فهو وحده قادر على ان يصور هذه الاذرع والسيقان الرشيقة والعيون الواسعة. كان للبنات في لوحاته دائماً سحر خفيف اشبه بسحابة صيف تسبح في الفضاء».

ونهضت راكيل وهي تضحك وقالت:

«اذن انت يا عزيزتي لست مثلنا في ارض الواقع. أبي، اعط الحالة الصغيرة قطعة اخرى من كعكة اللوز لئلا تصبح كالريشة في الهواء».

وضحك السيد فونسكا وقال:

«هل انت ذاهبة للتبضع! جوان، خذ ابنتي هذه المدللة ودعني مع هذه الصغيرة التي لم يزدحم عقلها بصرعات الثياب والحفلات والملذات!».

ابتسم جوان، وامسك بعصاه ووقف قبالة ايفين، على النحو الذي عرفته جيداً، انحنى نصف انحناءة ثم نظر اليها وقال:

«كوني طالبة مجدة يا صغيرتي، سأوجه لك اسئلة عندما نلتقي ثانية».

تلاقت عيناه بعينيها ووجدت انه اصبح مرة اخرى الوصي الجاد. ان الكتف التي استندت اليها كانت بعيدة غير حنونة، واليد التي تمسك بالعصا الابنوسية يد لا رقة فيها الا في الاحلام. تحدثت الى دون جوان قائلة:

«آمل ان تستمتع بيومك يا سيدي».

وابتسمت لمدرسها، لأن الوصي عليها لا يريد على ما يبدو ابتسامات من احد غير راكيل. انها وحدها التي تحمل على ما يبدو مفتاح شخصيته المحيرة.

وسألها دون جوان فجأة وفي ادب:

«ماذا احضر لك؟».

اتسعت عيناها حتى لم تعد ترى وجهاً آخر غير وجهه الاسمر المميز. ولاحظت نظرة راكيل اللاهية ويدها التي تعبث بمقبض حقيبة يدها،

واجابت المركيز:

«لا شيء، دون جوان».

وعاد يسأل وفي عينيه ابتسامة:

«ولا حتى علبة حلوى؟».

فأجابته بابتسامة مترددة:

«حسناً، حلوى».

ثم استدار نحو السيد فونسكا وقال:

«سنعود في ساعة متأخرة يا صديقي، ولكني اعدك باني لن اترك ابنتك الجميلة تشرد بعيداً عني».

وضحكت راكيل ضحكة دافئة وتأبطت ذراعه بعد ان قالت:

«جوان، لا تبدأ في معاملتي بلهجة الوصي... لست في حاجة لذلك، فانا لست مراهقة كما تعرف».

ابتسم وقال:

«اعرف يا راكيل. والآن علينا ان نرحل اذا كان علينا اللحاق بالباخرة».

انحنى دون جوان للسيد فونسكا، ونظر لحظة الى ايفين ثم رحل هو وراكيل من الباحة، وسرعان ما اختفى صوت عصاه وصوت كعب حذاء راكيل العالي عبر القاعة واعقب ذلك اغلاق الباب.

بعد دقيقة او نحوها استعادت ايفين كما استعاد مدرسها الاحساس بالسكينة التي غمرت الباحة من جديد. كأنما كانت هناك عواطف متضاربة تتقاتل في نور الشمس، ولم يعد هناك الآن غير زقزقة الطيور الطبيعية ونفثات النافورة الموجودة على الحائط. كانت الفيلا مبنية على الطراز الباروكي وجدرانها صفراء. وهناك شجرة دفلى حمراء تفوح منها رائحة ذكية. قال فونسكا:

«انت اذن تواقة للتعلم، اكانت الفكرة فكرتك ام هي فكرة دون جوان؟ انه رجل صاحب ارادة قوية، وهو شيء غير عادي ان تقدم فتاة جذابة على دراسة فلسفة الفن وتاريخه، اذ ان معظم الفتيات الصغيرات غارقات في الرومانسية».

ابتسمت في حياء واجابت:

«انا لم احصل على تعليم حقيقي يا سيدي، ومما يشبه المعجزة ان يأتي بي دون جوان اليك لتتولى تعليمي. انا اريد ان اتعلم واتشرب العلم وانمو بفضله فالمرء بدون المعرفة يظل غير ناضج».

قال فونسكا:

ولعله من غير العادي ان يتولى شخص اعزب رعاية فتاة. ولكن الحقيقة هي انك انت غير عادية. وليس جوان بالرجل العاطفي. واني متأكد انك لو كنت غير ذكية لأعادك الى وطنك مع شيء من المال وانحناءة مهذبة. لقد قال لي انه ليس لك عائلة».

«لا احد الآن».

«هذا محزن بالنسبة اليك. كل شخص لا بدّ له من شخص آخر، لعلك تعتبرين جوان في منزلة العم؟».

«كلا». وابتسمت ابتسامة تحولت الى ضحكة: «الواقع انني لا أتصور نفسي ادعوه بالعم جوان. انه مترفع جداً وله مكانته... انه اسد هذه الجزيرة».

«وانت تعتبرين نفسك نزوة من نزواته؟».

«اجل».

«اتعرفين يا صغيرتي ان الرجل الاسباني فيه قسوة وتفرد؟».

«اعرف هذا الآن».

مال فونسكا الى الامام وعيناه تنصبان على وجهها وقال:

«هل اعطاك جوان بالفعل الدليل على ذلك، وفي اي ناحية؟».

«انه يعارض قليلاً صداقتي مع ماتريك كورتيز. اظن انه يعتبرني غير ناضجة الى الحد الذي استطيع فيه التعامل مع شخص متفتح مثل ماتريك».

«انت تسرين برفقة هذا الشاب؟».

«من دواعي السرور دائماً يا سيدي ان اجد صديقاً لأنه ليس لي اصدقاء كثيرون. وماتريك مرح وحسن المظهر و...».

ابتسم فونسكا وقال:

«صداقته تشعرك بالرضى. وهذا شيء طبيعي. عندي ابنة واعرف ماذا يعني للفتاة ان تحظى بالاعجاب».

«ان دونا راكيل جميلة»، قالت ايفين ذلك باخلاص وان تكن الشكوك تساورها بالنسبة الى طبيعة ذلك الجمال ثم قالت: «لا بدّ انها دائماً محط الانظار».

وصرح الاب بدون اي اعتزاز في عينيه:

«منذ طفولتها. انها تشبه امها، ولكن آنا كانت لطيفة وطيبة وكانت سنواتنا القليلة معاً سنوات سعيدة جداً. وابنتي راكيل فيها القليل من بها وانا اشفق مقدماً على الرجل الذي ستتزوجه».

كانت ايفين تقطع لاهية اوراق احدى الزهور. واخذت تتخيل صورة راكيل وهي اليوم تضع يدها ذات الحلّي في ذراع دون جوان. وادركت ان راكيل قد وجدت ان من صالحها ومن المثير ايضاً ان تصبح عروساً للمركيز. وتساءلت ماذا يمكن ان يحدث لها كضيفة لدى دون جوان.

«فيم تفكرين يا صغيرتي وقد اكتست عيناك بالغموض؟».

تطلّعت ايفين الى مدرسها وجادت عليه بابتسامة وقالت:

«الحياة شيء محير للغاية. هل صحيح ان طريقنا مكتوب حتى قبل ان نولد».

بدا على فونسكا التفكير ثم قال:

«القدر، انني اميل الى الاعتقاد ان امام كل منّا مفترق طرق في حياته. آه، انت تفتحين عينيك العسليتين. هل قلت لك شيئاً مهماً يا آنسة؟».

«نعم انه لأمر غريب».

ثم سقطت البراعم الصغيرة من يدها بينما اخذت تتفحص كفها التي رأت فيه احدى الغجريات خطوط مفترق الطرق. واخبرت مدرسها بما قالته الغجرية عن كفها. وانتظرت منه ان يبتسم ولكنه لم يفعل. قال:

ولدى الغجريات الرومانيات موهبة الاستبصار. والدة دون جوان كانت غجرية اسبانية، واني اتساءل احياناً اذا كانت قد عرفت سلفاً ان زواجها من والد جوان سينتهي بمأساة. ان المركيز الكبير ما كان ليقبل الفتاة الغجرية. وعندما وقعت المأساة واصبحت ارملة، هربت مع ابنها الطفل جوان الى اميركا الجنوبية. وهناك ترعرع جوان واصبح رجلاً، وبفضل ارادته القوية وطموحه نجح في عمله بدون مساعدة اسرة والده. وكان ذلك في ليما...».

وتوقف فونسكا وتفحص وجه ايفين ثم قال:

«ان لك القدرة على الاصغاء بهدوء للرجل. . . الم يكشف لك جوان ابداً عن القليل من المه؟».

وكررت كلمة «المه»، وتذكرت اللحظات التي كان يبدو فيها تائهاً في بحر اكتئاب مظلم، والاوقات التي كان عبوسه يرعبها ويضطرها الى الابتعاد عن طريقه.

قال فونسكا:

«انّ ساقه لا تزال تتعبه. في البداية اراد الاطباء في ليما بتر الساق، ولكنه لم يقبل وسافر الى انكلترا رغم بعدها، حيث استعان بجراح عظام ماهر شرع في ترميم ساقه بواسطة سلسلة جراحات مضنية، مرّ بعدّة انتكاسات وعذابات. وكانت اعجوبة ان احتفظ بساقه بعد تهشم عظامها على اثر سقوطه بسبب انكسار عظمة حافر الجواد الذي كان يركبه. كان جوان يحب القفز بالحصان وهو مسرع. ويوم وقع الحادث كان يصعد بالجواد فوق احدى التلال، فاذا بالحصان يقذف به وتتهشم ساقه ثم يقع عليه الجواد ويتدحرجان معاً».

والتقطت ايفين انفاسها وتخيّلت بسرعة فظاعة الحادث، سقوطه من فوق صهوة الجواد، والتدحرج، والساق المهشمة، ثم قالت بصوت متألم:

«لا بدّ انه كان بمفرده في تلك البراري».

«ظل كذلك بضع ساعات حتى مرّ به بعض الرعاة ووجدوه يعاني من الالم تحت الشمس المحرقة، والحصان ميت الى جانبه من الرصاصة التي افرغها فيه كي يريحه من شدة الألام التي تعذبه. قال لي ذات مرة ان وجود المسدس في جرابه حفظه من الجنون خلال ساعات الانتظار. كان يعلم ان في امكانه اذا عجز عن التحمل ان ينهي عذابه كما انهى عذاب الحصان».

وهمست ايفين:

«ليس لأحد غير صاحب ارادة حديدية ان يتحمّل ما تحمله، الالم والشمس المحرقة وكونه بمفرده في مثل تلك الحالة».

«يا صغيرتي ان دون جوان اسباني وغجري معاً، من نوع الغجر الذين قاموا قديماً بغزو عوالم جديدة وعانوا المشاق وسببوا لغيرهم المتاعب ايضاً. وبفضل هذه القوة الكامنة فيه، والسيطرة على العواطف والاعصاب،

تغلّب على الحادث بتحمّله التعرّض للشمس، وتحمل شهوراً طويلة من العلاج البطيء، ثم عاد الى اسبانيا ليقيم وحيداً في قلعة حزينة. حزينة بسبب التعاسة التي عاشتها امه بين جدرانها».

قالت ايفين بنعومة:

«لقد رأيت صورتها. من الصعب عليه ان يغفر لمن الحقوا بها الاذى. كيف يظهرون لها الكراهية وهي اشبه بزهرة سمراء حلوة».

وسقطت نظرات فونسكا بحزن على الورود النامية قرب حائط الباحة، وقال:

«نعم، روزاليتا. لقد قابلتها في زيارة خاطفة للجزيرة. في تلك الايام كنت ادرس للشهادة العليا بجامعة مدريد، ولم اكن قد اقمت بعد مسكني في الجزيرة. قابلت روزاليتا ووالد جوان قبل فترة قصيرة من مغادرتهما الجزيرة، وكأنما كتب عليهما الاّ يعودا اليها بعد ذلك. كان تألقها قوياً يشبه السحر. والمركيزة، جدة جوان امرأة قوية السلطان لا تلين، اختارت لابنها عروساً غنية ولكنه آثر ان يجعل من راقصة غجرية زوجة له، وان تكون المركيزة في المستقبل. . . ولهذا لم تغفر له اسرته ذلك».

وتعجبت ايفين قائلة:

«يا له من تكبر! وحرص على الجاه والمركز دون الحب!».

فقال فونسكا بشيء من سخرية رجل في منتصف العمر:

«ان عواطف الشباب يا صغيرتي قليلة القيمة في نظر الذين لم يعرفوا العواطف ابداً، كان من الطبيعي للثراء في عائلة جوان ان يتزوج الثراء، ولأصحاب المراكز مصاهرة اصحاب المراكز. وقد حطم والد جوان القاعدة، واجدني احياناً. . .».

«نعم يا سيدي؟».

«بالنسبة الى جوان، انه ابن نبيل ثائر وغجرية ساحرة، لا اظن انه كان ليحافظ على لقبه ومركزه هنا، لو لم يكن الحادث الذي هدّأ من الروح القلقة في نفسه. يكفي ان تتأمليه على حين غرة فتجدين في عينيه الاسد السجين في قفصه. اما في اوقات اخرى فتجدين فيهما سخرية الاسباني الذي يتقبل قدره المكتوب».

كانت الباحة دافئة ومع ذلك ارتعشت ايفين قليلاً. ان القدر قد يقسو

على بعض الناس. ولاح لها امل بان تجد السعادة طريقها اليه حتى تعوضه عن الألم الذي عاناه ورسم خطوطه على وجهه، واشاع الفضة في شعره، وحرمه القدرة على ان يمتطي صهوة جواد او يمارس رياضة التنس، او ينعم برقصة مع فتاة. وجدت نفسها تسأل فونسكا:

«كم هو عمر دون جوان؟».

«انه في الثانية والثلاثين».

«حسبته اكبر من ذلك بكثير وهو يعاملني كطفلة!»

ضحك مدرسها وقال:

«بالنسبة الى جوان انت صغيرة وبريئة. اعتقد انه عاش في ليما اسماً على مسمى. وهي مدينة تزخر بسيدات المجتمع».

وهمست:

«دون جوان، العاشق الكبير الذي ظل قلبه بغير جراح».

«يقال انه وقع في الحب مرة واحدة».

«حقاً؟».

ومرة اخرى خطرت لها راكيل وهي ممسكة ذراعه بأصابعها ذات الخواتم الماسية، وهو يتأمل تلك الفتاة الاسبانية بعيني مجرب فيهما اعجاب بجمالها، ولعلّ قلبه اصبح اخيراً على استعداد للاستسلام. وقف فونسكا وقال:

«حان الوقت لنبدأ درسنا. وغرفة الجلوس في الداخل ليست حارة وفيها كتب وبعض قطع فنية جديرة بالدراسة».

كان اثاث الغرفة، التي ستصبح فيما بعد مألوفة لها، من طراز عهد ايزابيلا، قاتماً وغنياً بالنقش الجيد، ولهذا بدت مجموعة فونسكا الفنية رائعة.

ولاحظت ايفين على الفور بعض تماثيل صغيرة لأطفال بثياب اسبانية، وقد سمح لها المدرس ان تمسكها بعناية. وقال لها:

«عليك ان تحبي القطع الفنية حباً نابعاً من القلب».

قالت: هذه جميلة، وما ان امسكت بالتماثيل الصغيرة حتى لم تشعر بأي شيء آخر غير الاهتمام الفني. ونظرت الى لوحات الرسم المعلقة على الجدران المكسوة بألواح الخشب، ورأت فيها عيون اناس حقيقيين بدلاً من

عيون مرسومة. شعرت بالتأثر. ان الاشياء المجسدة اياً كان جمالها لا يحرك لها قلبها. الناس وحدهم هم الذين يقدرون على ذلك. والغضب او الشفقة او السرور فقط.

ومرة اخرى قالت: «جميلة». ثم شعرت بعيني مدرسها تستقران عليها بعطف. واخذ فونسكا كتاباً كبيراً من فوق احد الرفوف وقال:

«سنبدأ بحكاية تيتيان. واعتقد انك ستتعاطفين مع شخصيته على نحو [illegible] وبعد ذلك ستكونين جاهزة لدراسة الفنان المعلم».

وتساءلت بعينيها الكبيرتين العسليتين.

فقال وهو يبتسم:

«ليوناردو دافنشي».

ولكن بدا لايفين انه انما يقصد شيئاً يختلف كل الاختلاف!

٦ - رائحة العدس والأعشاب

اليوم هو الأحد. . . لا دروس، بل دعوة من مانريك كورتيز لنزهة بالسيارة حول الجزيرة. سلمت اليها الرسالة على مائدة الأفطار، وبذلك فهي مضطرة ان تسأل دون جوان اذا كان من المناسب لها تلبية الدعوة. رفع بصره اليها ببطء من فوق رسائله المكدسة امامه وقال:

«قلت انه لا اعتراض لي على الشاب كصديق يا ايفين. بالطبع يمكنك التنزه معه في السيارة».

«شكراً لك».

«يبدو في كل حال ان علينا التخلي عن فكرة احضار مرافقة لك. لقد جاءني الرد من دونا اوغستا بخصوص دعوتها الى القلعة. اعتذرت لأنها ابتدأت عملاً صغيراً مستقلاً وبالطبع لا يمكنها تركه للقيام بخدمة لن تكون دائمة».

وكانت ابتسامته مجرد انفراج للشفتين، ولكنه تابع وسألها:

«اتعتقدين ان في امكانك تحمل البقاء في القلعة بدون مرافقة؟».

سألته هي بدورها:

«وما هي حاجتي لمرافقة؟».

«فعلاً لماذا؟ ولكني اذكر ان الشكوك ساورتك تجاه نواياي يوم وصلتك الثياب الجديدة من مدريد».

«انا اعرفك الآن معرفة افضل يا دون جوان».

«احقاً ذلك؟». ثم مد يده الى ابريق القهوة واعاد ملء فنجانه وقال:

«عرفت الآن انني لست اسماً على مسمى أليس كذلك؟».

«كان عاشقاً مكثاراً بلا قلب».

«وماذا عني انا؟».

اطلقت ضحكة محيرة وقالت:

«انت رجل منفتح الشخصية، ولا بد انك سررت لكوني ساذجة لدرجة اني اسأت فهم كرمك. . .».

كان يشرب قهوته بدون حليب، وقال:

«ولماذا تصرين على التحدث عن كرمي، وكأني عم او خال؟ اعمالي نادراً ما تكون بدافع من العاطفة. انا رجل عملي مثل معظم الاسبان، ولا احب ان ارى الشباب والذكاء ضائعين وبالأخص لأجل امرأة مبتذلة مثل مخدومتك. وأنا مسرور من التقدم الذي احرزته مع الاستاذ فونسكا. حدثني ان لك ميلاً طبيعياً للغتنا. هيا قولي شيئاً بالاسبانية!».

«لا استطيع!».

«لا تخجلي مني! تصرفي وكأنني مانريك كورتيز».

«مستحيل!».

«ولماذا، هل لأنه من جيلك وانا كبير السن في منزلة العم؟».

احتجت قائلة:

«انا. . . انا لا اعتبرك عماً».

«ولكنك تخشين ان اجرحك، فترفضين التحدث الي ببضع كلمات اسبانية».

«انت . . . تخجلني».

قال ساخراً:

«هل ادير ظهري. صحيح يا ايفين انك تقولين اني كريم، ولكنك طوال الوقت تظنين انني صارم».

وبعد ذلك نظر الى الخادم وقال:

«ماذا هنا يا لويس؟».

«السيد كورتيز سأل عن السيدة الصغيرة يا سيدي. وهو ينتظر في سيارته».

«شكراً يا لويس».

ونظر دون جوان الى ايفين وقال:

«لا شك انك مشتاقة لمقابلة المعجب بك، ولهذا سنواصل مناقشتنا فيا بعد. وتذكري يا ايفين ما قلته لك. انا وصي عليك ولا اريد ان يأخذ الناس فكرة ان الشاب كورتيز يتمادى معك».

«ساكون في غاية الحذر يا سيدي».

وكانت تتطلع الى النزهة بالسيارة الى حد ان عينيها قد تلألأت وهي تهب من المائدة وتقول:

«لا اعرف متى سأعود الى البيت..».

فقال المركيز بهدوء:

«هذا ليس شأني. وانا شخصياً ساخرج».

«آمل ان تستمتع بوقتك يا سيدي».

«انا متأكد من انك ستقضين وقتاً ممتعاً يا ايفين».

ثم انحنى انحناءة صغيرة وتابع:

«هيا يا صغيرتي. لا تجعلي الشاب ينتظر».

«الى اللقاء».

رد عليها بالاسبانية عامداً، كأنه يذكرها بأنه يريدها ان تتحدث الاسبانية بين حين وآخر:

«هاستا لا فيستا (الى اللقاء)».

اسرعت مبتعدة وعبرت القاعة الى حيث كان الخادم لويس يمسك بالباب الأمامي مفتوحاً. وحينما مرت امامه شعرت برقة عينيه. لم يكن غير ودي تماماً مثلما كان في السابق. وكأن حضور شاب الى القلعة شيء جديد. وهمس:

«طاب يومك يا آنسة».

ابتسمت وقالت:

«شكراً يا لويس. في انكلترا اذا اشرقت الشمس هكذا ينتهي عادة النهار بالمطر».

ونظر لويس الى السماء الصافية:

«لا اظن ان على الآنسة ان تقلق».

«ها انت تصلين يا ايفين!».

صاح مانريك وهو واقف في اسفل الدرج، وابتسامته تلمع بيضاء وسط

بشرته السمراء. وجرت نحوه. كان يرتدي سترة بيضاء وقميصاً من الحرير الأسود، وبنطلوناً قاتماً وصندلاً. وامسك بيديها والقى نظرة شاملة عليها. كانت في ثوب ابيض يتوسطه حزام برونزي في لون حذائها. وانعكست الشمس في عينيها وفي شعرها. ابتسم وقال:

«كل مرة القاك تزدادين جمالاً، مثل زهرة كانت مغلقة في الظل، والآن تتفتح في شمسنا عن جمال غير متوقع».

قالت وهي تلهث:

«دعك من هذا فأنا لست حتى لطيفة!».

ورافقها الى السيارة وقال:

«وما دخل اللطافة في الجمال؟».

كانت سيارة رياضة بيضاء، لون أثاثها جميل. وكانت قطعها المعدنية تلمع في الشمس، وسقفها مفتوحاً. ولهذا رأت ايفين انها سيارة جديدة. قالت بسخرية:

«كل الرجال الاسبان يحبون اطراء النساء».

فسألها مانريك:

«وحتى دون جوان؟».

«والوصي على رجل يعرف المسؤولية...».

قال مانريك وهو يدير محرك السيارة، ويقودها الى خارج البوابة ثم الى الطريق الشديد الحرارة، وكان البحر يبدو على البعد ازرق فاتناً:

«انه اسباني وله عينان سريعتان. وهو لا يزال شاباً... فكيف يتولى الوصاية عليك؟».

«آمل الا تظن...».

ضحك وقال:

«بالطبع لا. من الواضح تماماً لي ان احداً لم يحدثك عن الحب».

«الا نتحدث في شيء آخر؟».

«آمل ان يكون الكلام مسموحاً».

«الكلام لا غبار عليه في نطاق الصداقة».

«اذا كان الوصي يريدني ان اعاملك كتلميذة مدرسة، فأولى به ان يحجزك في برجه. هل ادور بالسيارة واعيدك الى البيت؟».

«كلا، فهو سيخرج».
«مع الغريبة راكيل؟».
«اتوقع ذلك».
«تسود الجزيرة اشاعة نية زواجه منها. اتعتقدين انه سيتزوجها؟».
«انه لا يحدثني عن اسراره».
«لا اعتقد أنك ستحبين زواجه منها. اذا اصبحت راكيل سيدة القلعة ربما تمانع في بقاء زوجها وصياً على فتاة جذابة».
«ان دون جوان لم يصبح وصياً علي بصفة دائمة. وهو كريم الى حد انه يريد مساعدتي، وانا اقيم في القلعة بينما يعلمني السيد فونسكا بعض الأمور التي تعينني على العمل».
ابطأ مانريك سرعة السيارة عند وصولها الى منعطف في الطريق واتاح له ذلك ان يلقي نظرة عليها. كان شعرها يمرح في الهواء وبدت صغيرة وجذابة، وغير مدركة لجاذبيتها، فسألها:
«هل انت جادة؟».
«سيكون عملاً امتع من الاشتغال خادمة».
«هناك ما هو اكثر امتاعاً من العمل... وهو ان تتزوجي».
«اود ان احب قبل ان اخطو هذه الخطوة».
اغاظها مداعباً بقوله:
«لكنك تخافين من الحب».
«لم اعد اخافه، شأني شأن اي فتاة اخرى، ولكنني حذرة. انظر الى البحر يا ريك! انه يبدو جميلاً حتى لا اكاد اصدق انه ارعبني».
واسرعا بالسيارة، وكانت ايفين تملأ عينيها بكل شيء، وتختزن مشاهدات اليوم حتى تتمكن من تذكرها اذا حان وقت مغادرتها الجزيرة. مرت السيارة على بساتين اللوز، والزيتون، وطاحونة هواء فوق رابية تعيد للمرء صفحات دون كيشوت. وبدت جبال اسبانيا على البعد بنفسجية اللون. سألته ايفين:
«هل الجزيرة مثل اسبانيا؟».
«الى حد كبير. كأنما سرق احدهم في الزمن الغابر قطعة من الاندلس ووضعها في المحيط. انا من الجنوب ومع ذلك قد ازداد شغفاً بالحياة هنا».

ابتسمت وقالت:
«انت رجل مدن، فالموسيقى والغناء سيأخذانك حول العالم، وانت تعرف ذلك».
«هذا صحيح».
«اتساءل اذا كنا سنتذكر في المستقبل هذه النزهة في شمس النهار؟ مرورنا هذه اللحظة ببيت ابيض الجدران يزدان بزهر ارجواني؟ ورؤيتنا في اللحظة التالية لشخص بمفرده على الشاطىء يجمع عشب البحر ويكدسه في عربة يجرها حمار؟ هنا يمكنني ان اشم رائحة العشب ورائحة الزهور. ولعله يأتي يوم اشمهما فيه مرة اخرى، وبمجرد ان اغمض عيني سأتذكر».
ونظرت الى مانريك وتفحصت صورة وجهه الجانبية، واضافت: «هل ستذكر؟».
«الذكريات شيء ضبابي للغاية. اريد ان امسك بشخص حي يعيش ويتنفس».
«هذا لأنك رجل. اظن ان الرجال يتذكرون فقط الاشياء التي تؤذيهم».
وفكرت في دون جوان الذي ما كان ليعود ويستعيد لقبه، ويعيش في قلعة اجداده لو لم يتعرض لذلك الحادث المخيف، لقد مر حتى الآن على حد قول مدرسها بأوقات كان يتألم فيها.
اوقف ريك السيارة، وكان صوت البحر يملأ الجو. استنشقت هواء البحر بعمق وشعرت بالأمان لجلوسها هنا. ولم تعد تذكر لحظة غرقها في ظلمة البحر، سألها:
«فيما تفكرين؟».
امسك ريك بيدها، وابهامه على عظام رسغها الهش وقال:
«منذ لحظة بدت عليك صورة فتاة حالمة. ترى من الذي يشغلك في احلام يقظتك وخارجها؟».
«كل انواع البشر».
قالت ذلك ضاحكة، ولكن نبضها كان يسرع، وتساءلت عما اذا كان قد شعر بسرعته.
«انت تحكرين نزهتنا يا ايفين. ان كثيرات من الفتيات في طبعهن

الغزل. وهن يعرفن لغة العيون. لا بد ان حياتك حتى الآن كانت محمية».

«كانت حياة محصورة، وهذا شيء مختلف. فالفتاة التي تفقد والديها لا تكون محمية يا ريك، لهذا لا تعاملني كما لو كنت طفلة».

«اود ان اعاملك كحبيبة».

واقترب بوجهه الوسيم منها، مما اضطرها على التراجع فوق مقعد السيارة.

«ريك....».

«ان المحرمات فرضت علينا، وهي تغري الرجل».

«ارجوك لا تفسد يومنا».

«انا ابذل جهدي لتحسين اليوم. انظري حولك، تجدين اننا وحدنا باستثناء جامع الاعشاب البحرية. والمركيز ليس على مرمى البصر، ومن المحتمل ان يكون مع دونا راكيل ولعله يسترضيها بكل تحفظه المهذب».

حاول ان يداعب شعرها الأحمر الداكن، فاكتفت بأن ابتعدت قليلاً وقالت:

«الا يمكن ان تكون اكثر تحفظاً؟».

الواقع ان لمسته لم تحرك فيها الاحساس الذي سبق ان احست به عندما شبك لها المركيز القلادة حول جيدها، او عندما كان قريباً منها وهي تطل على البحر من نافذة برجه. واضافت:

«اعتقدت اننا سنتناول الغداء في فينكا».

«بعد لحظة».

وادرك ريك انها لا تريد ان يدنو منها، فبدا الارتباك في نظرته، وسرعان ما سألها:

«هل الفتيات الانكليزيات باردات كالثلج؟».

«اذا وجدن الشخص الآخر يريد ان ينتزع منهن شيئاً دون ارادتهن».

«هذا واضح، واظنك وجدتني غير جذاب».

«كلا يا ريك. كل ما في الأمر هو انني اود معرفتك معرفة افضل. اريد ان تكون اصدقاء....».

ضحك بسخرية وقال:

«اصدقاء! رجل وفتاة؟؟ ما كنت لتكوني معي هنا في السيارة لو لم

تعجب بك».

«اهذا كل ما تهتم به. الغلاف لا المحتوى؟». ثم امسكت بمقبض باب السيارة وفتحت الباب ونزلت وقالت: «شكراً للنزهة...».

«لا تكوني بلهاء!».

«البلهاء لا تمانع في المعانقة في السيارات».

ولما رأت المنحدر الهابط الى الشاطىء، خلعت حذاءها وركضت الى حيث توجد الرمال. وسمعت ريك يحاول مطاردتها. وشعرت بعدم الارتياح اذ وجدت ان جامع الأعشاب البحرية وعربته التي يجرها الحمار قد تركا الشاطىء، واذا بها وحدها على الشاطىء وشاب غاضب يحاول اللحاق بها.

«ايفين... انت تتصرفين كطفل!».

ربما كان هذا صحيحاً، ولكنها على الفور كرهت ريك ولا تريد ان يلمسها بعد الآن. اسرعت خطاها، وهي تسير على الرمال حافية. ورأت حاجزاً خشبياً يكسر الأمواج، ثم لمحت على مسافة قصيرة رصيفاً صغيراً به ممر بين الصخور يؤدي الى درجات سلم للرصيف. وما هي الا لحظات حتى كانت تصعد الدرجات لاهثة، ثم اطمأنت عندما رأت نفراً من الناس يتمشى على الرصيف.

ارتدت حذاءها وانضمت الى المشاة. ورأت ريك ينظر اليها من الشاطىء، ثم يعود ادراجه الى سيارته. لم تأسف عندما رأته يذهب. وانضمت الى صبي صغير يصطاد السمك بصنارة صيد. سألته باسبانية متلعثمة:

«هل اصطدت شيئاً؟».

اجاب يطمئنها:

«عن قريب اصطاد سمكة ضخمة».

لم تصدقه ولكنها لم تضحك، ولدهشتها وسرورها تمكن بعد نحو نصف ساعة من اصطياد سمكة كبيرة نوعاً، ودعاها لمشاركته فيها بعد شيّها على نار الخشب المتناثر على الشاطىء.

لقد خرجت ايفين من القلعة وهي مصممة على الاستمتاع بيومها، وبالرغم من تشاحنها مع ريك فقد استمتعت بكل لحظة من الساعات

التالية: كان اسم الصبي الصغير هو فرناندو ومعه في كيسه رغيف اسباني وبعض الخضار وسكين لتنظيف السمك.

اشتركا معاً في جمع قطع الخشب واشعال النار، وبعد ان تم شواء السمكة كانت لذيذة الطعم. استراحا قليلاً بعد الطعام ثم لعبا الكرة الطائرة.

كان كل شيء ممتعاً وغير متوقع ومضى الوقت بدون ان تشعر ايفين الى ان قال الصبي انه قد حان الوقت ليعود الى بيته، كما قال لها انها على مسافة اميال من القلعة. واشار اليها بالاتجاه الذي يتحتم عليها ان تسلكه. وقال لها انه مشوار طويل. عضت ايفين شفتها وقالت:

«كانت السمكة لذيذة. شكراً لك يا فرناندو لأنك سمحت لي بمشاركتك في الطعام».

«لقد سرني ذلك يا آنسة».

وكان شعرها قد تلبد حول عنقها وعلى كتفيها، وذيل ثوبها تبلل بماء البحر لأنها كانت تغوص بقدميها في الماء وراء الكرة. فسألها:

«هل تعيشين حقاً في قلعة السيد المركيز؟».

ابتسمت واجابته:

«حقاً انا جادة فيما اقول».

ثم لوحت له بيدها مودعة:

«وداعاً يا فرناندو. آمل ان نلتقي ثانية».

وعلى طريقة الاسبان المهذبة انحنى على يدها وقبلها. وقال:

«الى اللقاء يا آنسة».

شعرت ايفين بالوحدة بعدما غاب الصبي عن الانظار. عما قريب تغرب الشمس، وحذاؤها رقيق لا يصلح للمشي في طرق وعرة، كما ان وقوفها مكانها تتأسف على حالها لن يقربها من القلعة، وبدأت تسرع قبل ان تغرب الشمس وتسير بمحاذاة طريق البحر كما ارشدها فرناندو، ولاحظت ان الضباب يلف جبال اسبانيا باستثناء القمم، وان الشمس حجبها الضباب وهي تقارب على الغروب.

عما قريب يسود الظلام وبدا ان ضباب البحر راح يزحف على البر. اخذت تسرع... وفجأة صرخت لالتواء قدمها اذ ان كعب حذائها الأيمن

انخلع. دعكت موضع الألم في كاحل قدمها ونظرت الى الحذاء الذي اصبح بلا كعب.

وحدثت نفسها: «هذا ليس يومك». فقد زحفت عتمة الضباب من حولها وهي تسير بعرج واخذت تمعن النظر لعلها ترى ابراج القلعة في الظلام.

بدأت حبات العرق تتكون على شعرها وسمعت اصوات صفارات الضباب التي تطلقها البواخر القادمة نحو الميناء تترامى من الساحل الشرقي. اسرعت قليلاً رغم عرجها، وانتشر الضباب الرقيق. ادركت كل شيء، ولكنها لم تكن شديدة الخوف. لقد سبق ان ضلت مرة او مرتين في براري كومب سانت بليز، ولكن لكونها فتاة قروية لم تشعر بالرعب. هذا هو ما ينبغي تجنبه، لأن الرعب اذا تملك المرء وابعده عن الطريق الصحيح فإنه قد يضل لساعات.

تفهمت حالها وأدركت انه خلال فترة قصيرة سيعلو الضباب أمامها ولا تعود الرؤية واضحة، وانه سيتحتم عليها ان تعتمد على غريزتها وأعصابها لكي تتمكن من العودة الى البيت. كانت تعلم انه توجد في الجوار بعض الأكواخ، ولكنها متناثرة في جانب التل، وهي لا تجرؤ على ترك جانب الطريق الساحلي لئلا يتعذر عليها العودة اليه ثانية.

تذكرت ما قالته للخادم لويس هذا الصباح، ان الصباح المشرق الساطع في انكلترا غالباً ما ينتهي بعاصفة. وما كانت تدري أن شروق الشمس الرائع فوق هذه الجزيرة قد يتحول فجأة الى ضباب بحري كثيف. ولكن ها هي في قلب الضباب وتشعر بعجزها كذبابة سقطت في العسل. شعرت بالوحدة والبرد وتمنت لو كان معها سترة ترتديها، واذا بصوت من ورائها جعلها تستدير بسرعة لتلقي نظرة.

ولأول مرة منذ ساعة، كانت أضواء سيارة تشق العتمة الضبابية كأنها أضواء منارة. دق قلبها من الفرح. عليها ان توقف السيارة بأي شكل وتطلب المساعدة... لا بد من ذلك!

أسرعت بدون تردد بالوقوف في عرض الطريق وبما ان ثوبها الأبيض كان بادياً بفضل أضواء السيارة الكاشفة فان السائق يجب ان ينحرف تفادياً للاصطدام بها. وبالفعل استعمل السائق الفرامل ليتجنب صدمها. ولو

تأخر توقفه لحظة لصدمها. ومع صرير المعدن وتكسر زجاج السيارة، اصطدمت السيارة بشجرة وتبع ذلك سكون.

اسرعت ايفين نحو السيارة في توق وذعر معاً، وبدأت تعالج فتح بابها. فتحه أحدهم من الداخل، وبرغم الضباب وبصيص الضوء الصادر من مصباح سقف السيارة، عرفت الشخص القابع داخلها بجسمه النحيل، ووجهه العبوس، وشعره الأسود. ونظرته المشتعلة.

وسط هذا الضباب وتحت الضوء الداخلي الخافت حدق كل منهما بالآخر. سألت ايفين:

«هل انت بخير؟».

اجابها:

«كلا، والفضل لك. . . اظن انك ضائعة وسط الضباب؟».

«نعم يا سيدي».

كانت شبه باكية من الصدمة والاطمئنان لرؤيته سليماً وراء عجلة القيادة. وعندما حاول تشغيل المحرك، كان صوته يدل على عدم دورانه. كانت تعلم انه يقود احياناً بمفرده سيارة مصممة خصيصاً على نحو يتيح له مد ساقه.

وعندما تذكرت ساقه والألم الذي سبق له ان عاناه احست بالدوار فأمسكت بمقبض باب السيارة. وسألته بصوت منخفض:

«آمل الا تكون ساقك تؤلمك؟».

«كل شيء على ما يرام باستثناء سيارتي ومزاجي. لماذا لم تقفي الى جانب الطريق وتلوحي لي للتوقف؟ الضوء الكشاف لا بد ان يكشف حتماً عن وجودك بهذا الثوب الأبيض».

«لم افكر في أي شيء سوى الحصول على مساعدة. آسفة بخصوص سيارتك. . . هل تعرض المحرك لأي ضرر؟».

حاول تشغيل المحرك مرة ثانية ولكنه لم يستجب له، ولم يصدر عنه غير صوت خلخلة في سكون الليل الكثيف الضباب. وقال بدون انفعال:

«يظهر ان هناك ضرراً لحق بالمحرك».

القى نظرة شاملة على ايفين، واتجه ناحيتها فوق المقعد الأمامي ومد يده وجذبها الى الداخل وقال:

«اغلقي الباب لئلا يدخل الضباب».

اغلقت الباب، وفتح هو لوحة صغيرة مجاورة لعجلة القيادة واخرج من درجها علبة شوكولا وناولها اياها وقال:

«انت ترتعدين يا ايفين».

فتحت العلبة وتناولت قطعة من العلبة. وسمعته يقول:

«انتن النساء اذا سطعت الشمس تخرجن بدون معطف، وتتجاهلن الطقس ولذعات البرد. تناولي قدر استطاعتك من العلبة كي تشعري بالدفء». ثم اضاف: «في المقعد الخلفي بطانية للسفر ضعيها عليك».

ركعت على المقعد الأمامي واستدارت لاحضار البطانية من الخلف. ولمست اصابعها شيئاً ناعم الملمس، وسرها عندما وجدت ان بطانية السفر مصنوعة من الفراء. وقال دون جوان:

«ثوبك بلا اكمام، هيا غطي جسمك بها».

اسرعت دقات قلبها عندما انحنى الى الأمام ولف الفراء حول رقبتها، واحست بأصابعه الدافئة. وقال لها:

«لقد رأيت كورتيز في الهيدالغو عصر اليوم. وسألته اين كنتما، فقال لي انك عدت الى القلعة. ماذا جرى يا ايفين؟ هل تشاجرتما معاً؟».

اعترفت وقالت:

«اختلفنا في الرأي».

«اختلفتما على ماذا؟».

«شيء غير مهم. انت تعرف كيف يتطور الجدل».

«بدا لي الشاب غاضباً. هل حاول ان . . . يجرح شعورك؟».

«كلا. . . .».

«الحقيقة يا ايفين، ارجوك».

ارادت ان تهون من الأمر فضحكت قليلاً. سألها:

«اظن انك كنت تتجولين طوال اليوم . . . بدون غداء!».

احتجت وقالت:

«لقد تناولت غداء لذيذاً. تصادقت مع صبي يدعى فرناندو. كان يصطاد السمك من احد ارصفة الميناء وشاركته في صيده. شوينا السمكة على الخشب وتناولنا معها ما لديه من خبز».

«ارجو ان يكون فرناندو اقل حماسة من فارسك الآخر؟».
ضحكت وقالت:
«كان اكثر نخوة ولطفاً» ثم ابتسمت: «وقد قبّل يدي عندما افترقنا».
«كان على هذا الشاب ان يرافقك ليطمئن على وصولك سالمة كي يكون اكثر لطفاً».
بدا وجه دون جوان قاسياً فأخذت تضحك. وامسك بكتفيها وهزها، وسألها:
«لماذا تضحيكن؟ ما الذي يثير الضحك الى هذا الحد؟».
«لا شيء غير ان الشاب الذي شاركته الغداء على الشاطىء صبي في الحادية عشرة من عمره يا سيدي».
اشتدت قبضة يده وقال:
«ايتها اللعينة الصغيرة، هكذا تغيظينني؟».
نظرت اليه وانقطعت ضحكتها عندما ادركت جو الالفة بينهما وهما على انفراد. ان الضباب حجزها في سيارة رجل كان شاباً جذاباً لا يجارى كما يدل عليه اسمه. وهذا التيار من الوعي اشتد ببطء حتى اصبح قوة اخافتها قليلاً، فسحبت نظرتها عنه واتجهت بنظرها ناحية النافذة. وقالت:
«ربما نكون نحن فقط هما الوحيدان اللذان عزلها الضباب عن العالم. هل تعتقد ان الضباب سينقشع يا سيدي؟».
«ليس قبل الفجر».
كانت اجابته كمغناطيس اعادها للنظر اليه:
«هل تعني اننا سنبقى هنا طوال الليل؟».
«سننتظر بعض الوقت لعل سيارة اخرى تمر من هنا لتأخذنا معها، والا سنسعى لنجد مأوى نقضي فيه ليلتنا. ان زجاج السيارة الأمامي قد تكسر قليلاً، والضباب يتسرب منه».
كان الضباب يتسرب بشكل هبات باردة واحكمت ايفين الفراء حول رقبتها. وفتح دون جوان علبة سكائر ذهبية رفيعة وقدمها الى ايفين قائلاً:
«تفضلي، هذه سيكارة لعلها تهدىء من روعك ومحنة قضاء الليل وحيدة في صحبتي».
«هذا دورك لتغيظني يا دون جوان».

وقبلت سيكارة. انها لا تدمن التدخين. ولكنها كانت تدخن خلال حياتها لدى ايدا سانديل بين حين واخر تهدئة لاعصابها كلما اثارتها مخدومتها بالاسراع في تلبية طلبات زينتها.
انحنت كي تشعل سيكارتها من المركيز، وتجمعت امامها في تلك اللحظة غرابة احداث تلك الاسابيع القليلة الماضية. كل ما حدث منذ الليلة التي سبقت غرق السفينة حتى الآن تراءى كأنه حلم. ولكن تلاقي سيكارته بسيكارتها، وزجاج السيارة الذي تكسر، وحيوية عينيه السوداوين من وراء نفثات الدخان... كل هذا حقيقة وليس حلماً.
وسألها على غير توقع:
«هل تحبين الأولاد الصغار؟».
قالت مبتسمة:
«نعم. كان ممتعاً قضاء الوقت مع فرناندو، وهذا ما اخرني عن العودة الى البيت».
«هل تعتبرين القلعة بيتك؟».
«انها كذلك الآن». وتلاقت نظراتهما فأضافت: «ارجو الا تمانع؟».
«كلا، اطلاقاً. اعتقد ان القلعة انتظرت طويلاً من اجل مجيء شخص في سن الشباب ليطرد الظلال. وعندما يحين الوقت...».
قاطعته قائلة:
«لكي ارحل؟».
لم يجب لعدة ثوان، وكانت عيناه لا تفصحان عن شيء، ثم قال:
«نعم، سيبدو غريباً لفترة من الزمن، والآن علينا ان نفكر بخصوص الليلة. سيزداد البرد هنا تدريجياً، فاصطدام المحرك عطل على ما يبدو جهاز التدفئة بالسيارة. في استطاعتي سد ثقوب الزجاج الامامي بأي شيء ولكننا لن نرتاح تماماً هنا».
«هل تؤلمك ساقك يا سيدي؟».
«قليلاً. احياناً اتمنى لو كنت قبلت قيام منشار العظام بعمله، ولكنني عنيد ولا احب الاشياء الاصطناعية».
«اخبرني السيد فونسكا بالحادث القديم الذي تعرضت له» قالت ذلك وهي شبه خائفة من اظهار الشفقة، واضافت: «ولا بد ان ذلك الحادث كان

فظيعاً».

«ليس اكثر مما يحدث لجندي في معركة، ولكني رفضت فقدان ساقي، ولهذا فاي اوجاع وآلام اشعر الآن بها علي ان اتحملها فهي نتيجة لارادتي الذاتية. ان الاسبان لا يتهاونون مع انفسهم ولا مع الغير يا صغيرتي. ادرسي لوحاتنا، وطالعي كتبنا، وتذكري حياة الغزاة الاسبان في اميركا».

همست قائلة:

«يوجد شعور من فولاذ ولهيب وفروسية، والمرء يشعر بذلك هنا في الجزيرة، ويراه في وجوه الناس. انها تشبه الوجوه التي رسمها الفنان دياز، والعيون التي رسمها آل غريكو».

«ان الفنان آل غريكو فهم اسبانيا وناسها رغم انه كان يونانياً. لعل الشخص الغريب عن ديارنا قد يفهمنا على نحو افضل مما نفهم نحن انفسنا؟».

تلاقت عيونهما ورأت في وجهه كل المقومات التي جعلت من اسبانيا دولة حيمة وقاسية واخاذة. اهلها من الصخر الصلد والشمس المحرقة والظلال العميقة. انها تجمع بين الانفة والعاطفة وتجعل المرء يفهم كنه الحياة وجوهرها.

ابتسمت وقالت:

«السيد فونسكا يعلمني كل شيء عن اسبانيا».

«وهل تحبين ما تتعلمينه؟».

«انا مفتونة به يا سيدي».

«بسكان البلاد، ام تاريخها ام طبيعتها؟».

«بكل شيء. الناس والتاريخ والطبيعة».

نظر اليها وهو يطفىء سيكارته وقال:

«اي خليط من الحكمة والحماقة انت».

«انه بسبب صغر السن يا سيدي».

«طبعاً».

مال الى الامام وراح يتفحص عينيها الواسعتين، ونحوها الذي غاص نصفه في الفراء القاتم اللامع، وقال:

«انك فعلاً صغيرة في بعض الامور، ومع ذلك يمكنني ان ادرك لماذا كان

غاضباً عندما تحدثت اليه. ماذا فعلت له، هل صفعته؟».

ابتسمت بعصبية وقالت:

«كلا، قفزت من سيارته وركضت مبتعدة عنه».

«وهل طاردك؟».

«نعم، الى ان وصلت الى الرصيف. وكان هناك بعض الناس، ولهذا كنت في امان».

«... ابتساماته غير المرغوبة؟».

عبثت بأصابعها بطانية الفراء وقالت:

«نعم، بعض الرجال يظن ان وجوده على انفراد مع فتاة يعطيه الحق في معاملتها كعاشق».

«نحن على انفراد يا ايفين. الا تخافين من غريزتي».

«انت وصي علي».

«الا اجعلك تريدين الفرار مني؟».

نظرت اليه، وضاعت الكلمات منها. وفي لحظة مذهلة بدا لها كأنما وجدت نفسها على انفراد مع دون جوان الجسور الذي كان يهوى الخيول السريعة، والذي كان يستخرج الفضة من مناجمها في البراري، ويحب صحبة الفاتنات. وكانت بسبب صغر سنها غير واثقة من دون جوان مثلما هي غير واثقة من اي رجل آخر.

اطمأنت نفساً عندما وجدته يركز اهتمامه على موضع القفاز في السيارة، ورأته يخرج من هذا القسم بطارية يد. واضاءها ثم قال:

«اقترح ان نترك السيارة ونبحث عن مبيت في احد الأكواخ القريبة من هذا الطريق. تدثري جيداً بهذا الفراء».

خرجا من السيارة الى الطريق الذي يلفه الضباب وحملقت ايفين حولها بعصبية. كانت الأصوات كلها خرساء. والاشجار كالاشباح. وقالت:

«أليس من الأفضل ان نبقى في السيارة يا سيدي؟».

اجاب بحزم:

«كلا. قد يصيبك البرد، كما ان ساقي تؤلمني. تعالي، كوني قريبة مني واعدك بأننا بعد قليل سنجلس بقرب نار مشتعلة ونشرب قهوة ساخنة».

كان شعاع بطارية اليد يشق الضباب، وبعد فترة وجدا انهما فوق طريق

جانبي عليه آثار اقدام لا بد ان تفضي الى مساكن من نوع ما. وعملت ايفين بنصيحة الوصي عليها فظلت الى قربه وكان يعرج اكثر من المعتاد. انها الرطوبة تسري في عظام ساقه. وارادت ان تضع اصابعها في الجزءالمعقوف بلمراعه - كما فعلت راكيل بصورة حميمة - وتمنحه بعض الراحة.

وقف بغتة وقال: «آه». وولى قلق ايفين عندما رأت شعاع البطارية يشير الى بياض جدار واطار نافذة ثم الى باب خشبي عليه حلقة حديدية تستعمل مطرقة للباب.

واضاء بالبطارية وجه ايفين وقال:

«حسناً يا غريتل، لقد عثرنا على كوخ في الغابة. هل تظنين ان هانزل سيتجرأ ويطرق الباب (غريتل وهانزل من الشخصيات المعروفة في قصص الأطفال).

ضحكت ايفين ضحكة خافتة، اذ اعجبتها دعابة دون جوان التي تختبىء في صدره كعرق من الذهب، وقالت:

«قدما غريتل باردتان».

«لاحظت انك تعرجين يا صغيرتي».

«لقد فقدت كعب الحذاء الأيمن».

ولما وصلا الى باب الكوخ، رفع الحلقة الحديدية وطرق الباب مرة ومرتين وثلاثاً. وانتظرا ثم سمعا النافذة العليا تفتح وترامى اليهما صوت عجوز تسأل:

«من بالباب؟».

«سيدتي، نسألك المأوى هذه الليلة. سيارتنا تحطمت وقد اصبحنا معزولين في الضباب».

«آسفة يا سيدي، ليس عندي غرفة....».

«سأدفع لك مبلغاً حسناً يا سيدتي».

ساد السكون بعدما ترددت العجوز واغلقت النافذة.

تحدث دون جوان بالانكليزية الى ايفين:

«القرويون يشعرون بالعصبية في ليلة كهذه. ان العجوز ستفتح لنا اذا اجزلت لها العطاء».

اقترحت ايفين:

«اخبرها من تكون».

واجابها بابتسامة في صوته:

«افضل ان نبقى غرباء بالنسبة اليها».

وبينما كانت ايفين تستوعب ملاحظته، سمعت انفتاح اقفال الباب من الداخل، وانفتح الباب ببطء وظهرت امرأة مغطاة بشال وفي يدها مصباح ... رفعت مصباحها كي تتأمل الواقفين ببابها. وحملقت جيداً في وجه دون جوان الممدود القامة والمهاب برغم شعره المشعث، ونظرت بتجهم الى رفيقته الصغيرة المتدثرة بالفراء، ويبدو انها لم تتعرف على المركيز لأنها قالت رافضة:

«لا اعرف اذا كان علي ان افتح بابي للغرباء. كيف لي ان اعرف انكما من الشرفاء؟».

اخرج دون جوان محفظة نقوده من جيبه واخرج منها عدة اوراق وقال:

«تفضلي يا سيدتي، اعتقد ان هذه تشتري لنا سقفاً من اجل ليلة واحدة؟ هيا، فالسيدة الصغيرة ترتعش من البرد».

دست العجوز المال في صدرها وفتحت الباب فتحة تكفي لدخولهما الى الممر الضيق. واغلقت الباب باحكام، وقادتهما الى المطبخ حيث توجد نار قليلة مشتعلة، تلقي بظلال حمراء على الجدران الكلسية الدهان.

ووضعت المضيفة المصباح على المائدة، واضافت بعض الخشب الى النار. وعادت مرة اخرى بعدما ازدادت السنة اللهب لتتفحص جيداً الزائر والزائرة. ورأت ايفين ان العجوز بعينيها الحادتين ووجهها المغضن المحاط بالشال الأسود اشبه بساحرة. لقد نظرت الى ايفين وقالت شيئاً باسبانية سريعة. وتطلعت ايفين الى دون جوان تسأله العون لأنها لم تستطع فهم اللهجة القروية.

«السيدة تسأل اذا كنت ترغبين في تناول بعض الشوربة».

«اوه، نعم، رجاء».

رد على العجوز بالايجاب، فذهبت الى المدفأة وحركت قدراً اسود جهة اللهب. وطوال الوقت كانت تلقي بالملاحظات من فوق كتفها، واحست ايفين فجأة بقبضة دون جوان المفاجئة وهو يرفع بيديه الفراء عن كتفيها.

واسرعت العجوز الى المائدة واخذت تضع آنية فخارية للشوربة وملاعق وبعض الخبز. وسألته ايفين:

«وماذا تقول؟».

كان المطبخ من الطراز القديم بمقاعده الخشبية ذات القوائم الثلاث، والبساط الملون الممدود امام المدفأة، والخزانة المملوءة بالآنية المختلفة، والمزهريات ذات الورود الاصطناعية.

وامتد ظل دون جوان الى السقف. وكان يبدو في سترته الرمادية غريباً وسط هذا المطبخ القروي. لقد اعتادت ايفين على رؤيته وسط الستائر الذهبية الفخمة والأثاث الكلاسيكي الفاخر، وشذى الورود يختلط بدخان سيكاره.

وكان يبدو متردداً، كأنه يريد عدم خدش شعورها... بشيء كان غير اعتيادي.

«تقول المرأة انه لا يوجد غير فراش واحد... وهي مستعدة للنوم هنا بقرب المدفأة».

نظرت اليه ايفين وقد غمرها شعور يائس. كان يستند بتعب على عصاه. ادركت ان ساقه تؤلمه وانه ما من مكان آخر يمكنه ان يرتاح فيه... باستثناء غرفة النوم الوحيدة هذه! وابعدت بصرها عنه وحدثت نفسها قائلة انه ينبغي الا تكون متشددة... ولكن ماذا تراه قال للعجوز؟

كان المطبخ يفوح برائحة العدس والاعشاب عندما اخذت العجوز تملأ الصحون بالشوربة. جلست ايفين الى المائدة بدون ان تتجرأ على النظر الى دون جوان. وشعرت بضعف ركبتيها. وكانت غريزتها تحدثها بأن الاسبانية العجوز لن تسمح لهما بالنوم معاً الا اذا اعتقدت انهما متزوجان!

صعدا درجات حجرية ضيقة الى غرفة النوم، واضاءت الشمعة التي تحملها ايفين جدران الغرفة وغطاء السرير اللامع عندما دخلا الغرفة ذات السقف المنخفض.

كان هناك سرير واحد، وخزانة صغيرة ومقعد. وكانت الغرفة تحت سقف الكوخ، وذكرت ايفين بغرفتها الصغيرة الباردة عند آل ساندل. ولكن لم يحدث ابداً ان تقاسمت الغرفة مع رجل اسمر طويل في عينيه لمعة شيطانية.

ولحت هذا البريق وهو ينظر من المقعد الخشبي الوحيد الى الفراش، شعرت كأنما سكون الغرفة يمتلىء بدقات قلبها.
همس: «يبدو انك مضطربة».
تلاقت عيناها بعينيه ورأت فيهما سبب اضطرابها. وقالت:
«اني دائماً اضطرب هكذا عندما اكون متعبة». وطوحت بشعرها فوق كتفيها، واضافت:
«اني... اني لن اتصرف بسخافة لأن علينا ان نتقاسم هذه الغرفة».
«بل علينا ايضاً ان نتقاسم السرير. يمكن ان اكون قديساً واجلس طوال الليل في هذا المقعد غير المريح، ولكنني واثق ان قلبك الرقيق لن يدعني اقاسي هذا العناء».
«استطيع لا».
شعرت بالضعف مرة اخرى وودت لو تخر ساقطة على جانب السرير ذي التجيد الجنوني والأعمدة الخشبية المحفورة باليد. ونظرت في كل مكان باستثناء مكان دون جوان ووجهه الذي انعكس عليه ضوء الشمعة وزاده سحراً. عليها ان تحاول عدم اساءة التصرف لأن الظروف اضطرتهما لتقاسم الغرفة ... والفراش!
وبدون تفكير قالت:
«يكفني الاكتفاء بالمقعد!».
قال بصوت ناعم ومنخفض:
«ايفين، حسبت انك تشعرين معي بالأمان».
«انني فقط...».
«فقط ماذا، يا صغيرتي؟».
«انني لست طفلة».
«اذا انت كبيرة الى حد تحافظين فيه على نفسك، وتظنين اننا الآن وحدنا هكذا، وانني سأفقد السيطرة على نفسي واندفع نحوك مبدياً اعجابي».
ولكونها كانت غير واثقة منه الى هذا الحد، فقد مرت ثانية او ثانيتان قبل ان تدرك انه كان يتهكم. فأسرعت قائلة:
«انني غير معتادة على مثل هذه المواقف».
«انت لست طفلة حتى اضربك، ولكن هناك وسيلة تعامل اخرى

للرجل مع الفتاة الحانقة، هل يمكنك معرفتها؟».

نظرت الى فمه وابتعدت عنه قدر المستطاع. كان ضوء الشمعة على عنقها وذراعيها العاريتين ينعكس ايضاً على عينيها المذعورتين وشعرها الأحمر الداكن. وكان مجرد التفكير في ا ن دون جوان قد يسيء اليها كافياً ليعكر هدوءها، وفجأة انهمرت دموعها من العاطفة والتعب، ثم قالت وهي ترتعش:

«انا... انا لا اود ان اتشاجر معك».

قال وهو ينظر الى دموعها وجسمها المتوتر:

«ماذا تريدين يا ايفين. لعلك لا تعرفين بنفسك، وانا لا اريد ان اغضبك اكثر من هذا الليلة. ستنامين تحت اغطية الفراش، وسأنام انا فوقها على الجانب الآخر».

وكانت ابتسامته محدودة، ولكنها كانت رحيمة، واحست مرة اخرى بمشاعر لا تكاد تفهمها. في لحظة تريد ان تتشاجر معه وتهرب، وبعدها يجعلها تريد شيئاً مختلفاً.

لحظة ابتسم لها، اطمأنت له كل الاطمئنان، وزالت عنها كل المخاوف والأوهام.

ارتعشت... قد يكون ذلك من جراء افكارها، او برودة الغرفة، وفي الحال لاحظ ذلك فاقترب منها وهو يعرج. وامسك بيدها واحس برودتها. وسألها:

«هل قدماك باردتان ايضاً؟».

هزت رأسها وقالت:

«ان البرودة كانت دائماً مشكلة بالنسبة الي. واعتدت ان اصاب بتقرحها في الشتاء... بيت ساندل الريفي كان كبيراً وبارداً».

«وكانت غرفتك بدون مدفأة». واجلسها على حافة الفراش وقال: «اخلعي حذاءك. وسأدفىء لك قدميك».

لم يكن ثمة سبيل للاحتجاج. وبدون الحذاء شعرت انها صغيرة، طفلة، لا تقوى على شيء. ولما اخذ قدميها بين يديه وفركها حتى سرى فيها الدفء شعرت بالخجل والامتنان. كان اشبه بشيء يفعله الأب الى ابنته، ولكن هذا الرجل لم يكن ابوياً في تصرفاته. احست بالنعاس بعد الدفء،

ووضعها فوق الفراش ولف الاغطية من حولها، ونظرت هي اليه وقد ثقل جفناها.

سقط ظله كالقوس على الحائط اذ انحنى كي يبعد شعرها عن وجهها:

«هل هذا افضل؟».

«كل شيء لطيف ومريح جداً».

سحب اصابعه من فوق خدها بعد ان ابعد شعرها عنه. وخطر لها ان تبتسم شاكرة، ولكنها تراجعت حتى لا تفسر كل شيء. وبسرعة ابتعد عنها، واخذت تنظر الى ظله على الحائط وهو يخلع الحذاء والسترة وربطة العنق وازرار اكمام القميص. ووضعها على المقعد المجاور للفراش. ثم اطفأ الشمعة وتمدد على الجانب الآخر من الفراش وقد غطى ساقيه بقطعة الفراء.

سمعت ايفين تنفسه، ثم صدرت عنه تنهيدة الراحة بعد تمديد ساقه التي تؤلمه.

يجب الا يعلم احد بهذه الليلة. وعلى الاخص راكيل التي قضى معها النهار. ان عيني راكيل تكشفان الاسرار اذا استقرتا عليه. وهي لن تصدق ابداً ان فتاة قد تقضي الليل مع دون جوان بدون ان تجد نفسها تحلم به.

وسمعته يهمس:

«اغمضي عينيك الواسعتين يا صغيرتي ونامي. الليلة هي سر بيننا. وغداً نبتسم بشأنها».

واخيراً تجرأت ايفين وسألته:

«ماذا قلت للعجوز؟».

«لم اقل لها شيئاً عنا».

«تعني انك تركتها تفترض انه يحق لنا المشاركة في الغرفة؟».

«الافتراض هو الكلمة الصحيحة».

«انك لخبيث حقاً يا دون جوان!».

«اذا كان هذا هو رأيك. ولكن عليك الاعتراف بأن الفراش اكثر راحة من الرقاد على مقعد طوال الليل».

«هذا صحيح».

«لا تثقلي على ضميرك، واعتبري نفسك بعيدة جداً عني واغمضي

بالنوم».

ارادت ان تقهقه عندما قال ذلك... انها تحبه عندما يلجأ الى الدعابة...

تحبه؟

ظلت بلا حراك واصغت الى انفاسه. وشعرت بثقلة ساقه الى وضع اكثر راحة. واذا بها تستعيد في ذاكرتها كلمات قديمة: كم احبك؟ احبك بالعاطفة التي تحركها احزاني الماضية وطفولتي البريئة احبك مع انفاسي وبسماتي ودموع حياتي!

واغمضت عينيها ونامت.

استيقظت قبله في الصباح ووجدت الشمس تملأ الغرفة ذات الجدران البيضاء. حيث تعشعش الطيور وتغرد. وتذكرت في الحال احداث الليلة الماضية، وتأملت الوجه النائم الى جوارها، تأملت سواد شعره وكبرياء انفه، وادركت مدى اطمئنانها له.

تركت الفراش واتجهت الى النافذة. وفتحتها على آخرها وانحنت الى الأمام، واستنشقت هواء الصباح ووجدت الشمس دافئة بعد الليلة الماضية الباردة. وكانت آخر آثارها الضبابية يمكن رؤيتها وسط اشجار الصنوبر والاعشاب الندية التي تملأ الهواء بشذاها.

واذا كان للمرء ان يتعلق بلحظة من اختياره لا يريد الافلات منها. فها هي لحظتها، وهي الآن تختار ان تظل اسيرة هذا الصباح الجميل وان تكون الفتاة الوحيدة في حياة دون جوان. كل الكلمات او الوعود التي سبق ان رددها لغيرها لا يمكن ان تزيل سحر هذه اللحظة.

٧- اكثر من حب جانبي

اهتمت ايفين في الايام التالية بالتصرف كأنما لا شيء يشغلها غير دروسها مع فونسكا. كان السائق يقودها كل صباح الى البلدة حيث توجد الفيلا. وأحياناً ترى راكيل في الحديقة او خارجة في طريقها الى النادي للمرح على التنس او لتناول الغداء مع احد الاصدقاء.

وكانت راكيل كلما رأت تلميذة والدها تتظاهر بعدم الاهتمام كثيراً. وذات صباح قالت لها وقد وجدتها قرب طاولة في الحديقة منهمكة في دراستها:

«انت مخلوقة صغيرة جادة. بالأمس فقط كان ماريك كورتيز يسأل عنك وقد قلت له ان في امكانه ان يلقاك هنا على الرحب والسعة».

اجابت ايفين:

«آمل الا يفعل. قد يلهيني عن الدراسة وانا اهتم بالدروس».

قطفت راكيل وردة صغيرة ووضعتها فوق ثوبها الجميل:

«ارى هذا بوضوح. ولكن أليس من الاجمل ان تتزوجي شاباً لطيفاً، بدلاً من دراسة هذه الكتب وحشو فكرك بالحقائق والتواريخ؟».

«أنا احب التعلم. ووالدك استاذ رائع».

قالت راكيل بابتسامة الموافقة:

«انه محبوب. وهناك رجل آخر فقط يجاريه في علمه وذكائه وجاذبيته الاسبانية. هل تجدين رجالنا جذابين لطفاء يا آنسة بلغريم؟».

رفعت ايفين نظرها ووجدت راكيل تتفحص ثوبها الاخضر الهادىء، وشعرها الاحمر الداكن المنساب كذيل الحصان، وقالت وهي تبتسم:

«اجل احب جاذبيتهم ولطفهم. ان للاسبان بالتأكيد سحرهم ولطفهم».

«اذن من الغريب انك لم تحبي احدهم يا آنسة بلغريم. بالطبع، اني سمعت عن هدوء اعصاب الجنس البريطاني وانهم لا يكشفون عن شعورهم».

«ارى انك تلمحين الى شيء يا آنسة فونسكا. ارجوك كوني صريحة معي».

«ان دون جوان لا يمكن ان يظل دائماً مسؤولاً عنك. هل صراحتي هذه كافية؟ وانت لست طفلة حتى لو كان جوان يعتقد ذلك؟».

نظرت ايفين الى عيني الفتاة الاخرى وقالت:

«كلا يا آنسة انا لا احلم بالاعتماد على كرم دون جوان اكثر مما يلزم. والدك يعرف مدير احد صالات الفن في مدريد وآمل ان اذهب عمّا قريب للعمل هناك كمساعدة له».

«مدريد؟ لا بدّ ان هذا سيناسبك بخصوص صداقتك مع ماريك كورتيز. يبدو انه مهتم بك، ونصيحتي اليك هي الاّ تغالي في التشدد. ان الرجال يحبون اثارة المطاردة، ولكنهم يحبون ايضاً اللحاق بالطريدة».

ارخت راكيل اصابع قفازها ثم اضافت: «هل تخافين قليلاً من الرجال؟».

احتجت ايفين وقالت:

«انا لست بنفسجة خجولة».

«يبدو ان ماريك يعتقد بانك متواضعة وخجولة، وانه ربما ازعجك في المرة الاخيرة التي كنتما فيها معاً».

«لقد ضايقني».

وبدت راكيل فضولية اذ سألتها:

«وماذا فعل يا عزيزتي؟».

وعادت ايفين تتذكر نزهة السيارة مع ماريك ووجدت ان تفاصيلها قد طمستها الاحداث التي اعقبتها في الكوخ ليلة الضباب. آه، لو ان راكيل علمت بتلك الليلة! ان ذلك يمكن ان يزلزل كيانها، فهي ليست من النوع الذي يصدق ان فتاة يمكن ان تظل بريئة بعد قضاء ليلة مع رجل. لا شك انها ستتكدر من كون دون جوان يميل الى واحدة غيرها.

آه لو كان ذلك صحيحاً.

شعرت ايفين بالاضطراب مجدداً، وشعرت كذلك برغبة في ان تثور. ان راكيل بالمقارنة مع دون جوان سطحية. انها تقضي ايامها في متع تافهة، وحبها له ليس عميقاً.

كانت عودة السيد فونسكا الى الحديقة حاملا معه كتاباً به مستنسخات من روائع الفن يريد منها دراسته، بمثابة خلاص لها من راكيل، اذ سأل ابنته:

«الا تنوين البقاء ومشاركتنا الدراسة؟ ظننت انك كنت في طريقك للغداء في الفندق مع واحد من المعجبين بك».

ابتسمت راكيل مبدية شفقتها على ايفين، واجابته:

«انه لن يمانع في انتظاري. اشفق عليك يا عزيزتي لأنك مضطرة للعمل. عليك ان تأخذي بنصيحتي وتبحثي عن زوج».

سألها والدها بجفاء:

«وهل وجدت انت زوجاً لك».

«نعم يا ابي، هناك شخص خاص».

وابتسمت في غموض وهي تقبل والدها على خده، وكانت لا تزال تبتسم وهي تلوح لايفين مودعة. خرجت من باحة الحديقة، وانتشر عطرها في الهواء ولم تفارق كلماتها ايفين بقية الصباح. كان دون جوان هو هذا الشخص الخاص، الذي يجب ان يتزوج ليكون له ابن يحمل لقبه ووصايته على الجزيرة.

تناولت ايفين الغداء مع معلمها تحت شجرة ظليلة، بينما الطيور تغرد والزهور تتعرّض لهجمات النحل.

«يبدو انك حزينة. هل انت متعبة؟».

«كنت افكر يا سيدي انني لا استطيع البقاء في القلعة الى ما لا نهاية. متى تعتقد انه يمكنني ان اعمل في غاليري مدريد؟».

ابتسم وهو يقطف خوختين من الشجرة القريبة من الحائط بواسطة سكين ذات مقبض عاجي وقال:

«ان الصغار لا يصبرون، وهم يتوقون للمغامرات الجديدة والوجوه الجديدة. هل مللت بسرعة من مدرسك ذي اللحية والكتب السميكة التي يريد منك دراستها؟».

اسرعت الى القول:

«كلا، ليس هذا هو الأمر. انني استمتع بكل لحظة هنا. وألعق كل ما تعلمني اياه كقطة عطشى. ولكنني اتوق الى الاعتماد على نفسي... لا يمكنني ان اعتمد دائماً على دون جوان في مأكلي ومسكني».

اخرج فونسكا بذرة احدى الخوختين ثم وضعها في صحن ايفين، وقال:

«انا متأكد من انه مسرور بتوفيرهما لك. ان جوان اسباني اصيل وهو كريم جداً، والقلعة خالية بالنسبة اليه وانت تساعدين على شغلها. تعالي، تناولي الخوخة ولا تتصوري انك عالة على احد».

«متى يتزوج يا سيدي؟».

«لا اظن ان اليوم الكبير قريب يا صغيرتي».

«ولكنني اريد ان ارحل يوم حدوثه».

ركّز السيد فونسكا نظره على ايفين وقال:

«هذا مفهوم. يوم يتزوج جوان، ستتغير الحياة بالنسبة اليك، ولكن استمتعي حالياً بأيامك وانت تحت وصايته».

ابتسمت واكلت الخوخة وقالت:

«هذه هي الحياة».

«اجل يا صغيرتي، ما كتب علينا سنراه. وليس لنا جميعاً غير الرضى بقدرنا مهما كان شكل هذا القدر».

«هذا يجعلني كورقة خريفية لا تدري متى تسقط».

«انت تشعرين كذلك لأنك في سن الشباب. وللشباب احلامه وآماله واحزانه احياناً. ان افضل الشعراء والفنانين هم من الشباب، يجدون في الحب العذاب اكثر مما يجدون فيه من الراحة. والحب يتغلغل في كل شيء... لا مفر منه».

«لم احب ابداً. واعجب كيف يعرف المرء...».

تأملها فونسكا للحظة طويلة ثم قال:

«يشعر المرء كأنما يموت ميتة صغيرة في كل مرة يودع فيها شخصاً معيناً بالذات، ويبتعد عنه ويكون مراده هو فقط البقاء الى جانبه. الحب شيء اساسي يا ايفين. انه الرغبة لأن نكون جزءاً من ذلك الشخص، ليس لساعة واحدة وانما كل يوم. صدقيني، ستعرفين عندما تحبين، فانت حساسة وعاطفية صادقة».

ضحك بهدوء على الطريقة التي تطلّعت بها اليه، كانت عيناها في صفاء العسل، وتنبأ قائلاً:

«ستجدين سروراً عظيماً او حزناً كبيراً. ولا يمكن ان تكون هناك حالة وسطى للفتاة التي يجب ان تعطي كل شيء لرجل واحد».

قالت شبه ضاحكة:

«انت تضعني في موضع المتفانية في كل شيء».

«بدون هذا التفاني لا تصبحين طالبة ممتازة».

«شكراً لك يا استاذ، ومتى ستعطيني الدبلوم؟».

«في الوقت المناسب يا ايفين. اذا اصبح زواج دون جوان وشيكاً فسأكون من بين اوائل العارفين به».

طبعاً، سيكون والد راكيل اول من يعلم بان عليه ان يتوقع زواج ابنته من دون جوان في يوم معين في كاتدرائية الجزيرة، وسيكون على العروس ان ترتدي ثوب العرس الطويل المطرز وتحمل بيدها باقة الزنبق، وستعلو الابتسامة شفتيها الناعمتين. وسيتم اعلان يوم الاحتفال للجزيرة كلها. والجميع سيتمنون السعادة للمركيز، وسيقولون انه احسن الاختيار.

مرت بضع دقائق قبل ان تتذكر ايفين ان السيد فونسكا قد تركها لينام القيلولة بعد الغداء. ان محادثتها قد جعلتها تشعر بالقلق، ووجدت نفسها ترسم وجوهاً في دفترها... وجوه اسبان بشعر كثيف. وضعت قلمها جانباً وبدافع مفاجىء خرجت من باب جانبي في الحديقة، وهكذا تغيبت عن دروسها.

شقت طريقها في الشوارع ذات الدرج صوب الساحل، حيث تقبع مراكب الصيد والزوارق الشراعية وقت العصر في حرارة الشمس الخفيفة. قلة من الناس هنا وهناك. وبعض القطط تتمدّد في ظل قناطر الطرق. والنوافذ الضيقة تغلق ستائرها الخشبية لدرء حرارة الشمس. والبحر يفوح برائحة السمك والورود. وكانت هناك نخلة تلقي بظلها على جدار. وايفين وحيدة بثوبها الاخضر وشعرها يلمع بأشعة الشمس.

قادتها السلالم الحجرية الى الشاطىء الرملي، ورأت قارباً مقلوباً جففت الشمس قعره الذي كان يختبىء تحته سرطان خرج من مخبأه عندما جلست ايفين على هيكل القارب. كل شيء هادىء. البحر ساكن. وجبال اسبانيا

البعيدة بدت كسلسلة من الحديد الازرق عبر الافق.

بالتأكيد لن يطول الوقت كثيراً حتى يجين اليوم الذي تعبر فيه تلك الجبال راكبة الباص الذي يقطع الطرق البيضاء الى ان يدخل مدينة مدريد حيث ستشتغل هناك. حاولت ان تشعر بالفرح والامل تجاه المستقبل، ولكن عندما تخيّلت الوحدة التي ستعانيها في مدينة كبيرة، احست بالانقباض وانكمشت فوق هيكل قارب الصيد كأنما تشعر بالبرد.

ان الاحساس بالوحدة يوحي بالبرودة، وبدا كأن عليها طوال حياتها ان تترك ما تحب وتذهب الى مكان آخر. لقد احبت كوخ والدها في كومب سانت بليز، ولكن بعد وفاته لم تتمكن من البقاء فيه. وها هي تحب هذه الجزيرة وتحب القلعة. ولكن بعد ان يتزوج الوصّي عليها لا بد ان تغادرها ايضاً لتعيش وسط غرباء. طرفت عيناها وأحست بالدموع تبلل رموشها. وشعرت بالوحدة الى حد انها تاقت الى صوت يحدثها وتكون له شاكرة.

وعندما سمعت الصوت عرفته بدون ان تدير رأسها ناحيته. انه صوت الاسباني عازف الغيتار:

«كنت افكر فيك يا ايفين. ولا بد ان افكاري قادتني اليك».

مدّت له يدها، كأنما تريد لقبضته الدافئة ان تخرجها من برودة افكارها، وقالت:

«مرحباً ريك. نحن والقطط وحدنا هنا».

امسك يدها ووضع اصابعه بين اصابعها. كان شعره قاتماً كالظلال، وابتسامته كالشمس المنعكسة على جدران البيوت البيضاء المطلة على الشاطىء، ولمسته دافئة، ولم تتأفف هذه المرة من صراحة نظرته الجريئة. سألها:

«ما الذي اسال دمعك. الشمس المنعكسة على الماء، ام الطريقة التي هربت بها مني بدون سبب حقيقي؟».

قالت بسخرية ولكن بصوت فيه سرور لرؤيته:

«ربما من البكاء عليك. اجلس وحدثني يا ريك».

«هذا ما اريده».

وجلس الى جانبها على القارب وتابع:

«ماذا فعلت بعدما تركتني الاحد الماضي؟ آمل الاّ يكون تجوالك في الشاطىء قد طال، لأن الضباب ملأ الجو».

وكيف لها ان تنسى الضباب؟ ولكنها قالت:

«دعنا من الحديث عن تلك المشاجرة السخيفة».

«كانت سخيفة يا ايفين. ما الذي فعلته وكان بغيضاً؟».

«ارجوك، دعنا نبدأ من جديد انطلاقاً من اول لقاء لنا. كنت لطيفاً حقاً، مثل تروبادور الزمن الماضي».

«افضل شعور شباب الجيل يا صغيرتي. ترى هل قال لك المركيز ان يجب الاهتمام بدروسك وعدم تشجيع الشباب على مقابلتك؟».

«انا في حاجة ماسة الى التعلم».

«وماذا تدرسين الآن، هل ستكتبين مقالة عن قوارب الصيد؟».

اعترفت قائلة:

«اوه، لقد هربت من الدراسة. اذ شعرت فجأة بعدم قدرتي على التركيز، فتركت كتبي طلباً للراحة نحو ساعة».

شد ريك قبضته على يدها وقال:

«كتب، دروس! لا بد لك من المرح واللهو، ولو كنت المركيز لاعطيتك دروساً من نوع آخر».

«ريك!».

ضحك بدون خجل:

«هل حضرت عرساً اسبانياً يا عزيزتي. بالطبع لا. سآخذك اليوم الى زواج في الساعة السادسة. العروسان واهلهما سيذهبون الى الكنيسة، وبعد مراسم الزواج ستقام حفلة، وقد وعدتهم بالعزف فيها، وقيل لي ان احضر مع فتاة».

تمهل ريك قليلاً ثم تأمل ثوبها الاخضر وقال:

«سيكون من دواعي سروري ان اصحبك الى هذا العرس».

«أود ذلك يا ريك. ولكن السيارة ستأتي في الرابعة لاعادتي الى القلعة».

«يمكنك ان تقولي للسائق ان يعود فيما بعد».

وافقت وقالت:

«يمكنني. ولكن هناك دون جوان...».

وسألها ريك ساخراً:

«وهل يسجنك في القلعة بقية اليوم. وهل انت خاضعة لنفوذه وسحره

فلا تجدين الجرأة على ارضاء سواه؟ انا اريد ان اعاملك كامرأة يا ايفين وليس كطفلة. اريد ان اعطيك الموسيقى والضحك وليس جدران القلعة الحزينة والعشاء الرزين داخل غرفة تحجبها ذكريات الماضي. انه بسبب عجزه عن الرقص يظن انك لا تريدين الرقص، وبتوق لأن تكوني طفلة طوال النهار، وعانساً غير شاكية في الامسيات!».

احتجت قائلة:

«ريك، ما هذا التقريع. دون جوان ليس كما تقول اطلاقاً. انه سيسمح لي بالذهاب الى العرس اذا كنت اريد ذلك».

ابتسم ريك وقال:

«اذن ليست هناك مشكلة، تعود الى الفيلا في الرابعة، وبذلك يمكنك اعطاء السائق رسالة الى المركيز. ثم تذهب الى نادي هيدالغو لكي آخذ غيتاري. لا عمل لي في النادي هذا المساء، وبذلك نظل معاً هذا المساء لنقضي وقتاً ممتعاً. الا تجدين الاحتفال بعرس تحت النجوم فيه رومانسية؟».

«انتم الاسبان لديكم استعداد للرومانسية».

«ان الفتاة الاسبانية تعيش لارضاء الرجل الذي تحبه».

«اظن ما من شيء سيجعلني اسبانية».

اقترب منها وقال:

«انت مخطئة اذا تزوجت اسبانياً تصبحين اسبانية».

«سأظل دائماً انكليزية في اعماقي. ولن تكون عندي الروح الاسبانية الحقيقية».

«ان لك سحرك الذاتي».

ثم سرح نظره على وجهها واستقر على شعرها الاحمر الداكن مثل اوراق الخريف فوق الثوب الاخضر الهادىء. وهمس بالاسبانية وهو يقرب يدها من خده:

«باردة هي يد الفتاة ذات القلب الدافىء. في الاسبوع الماضي، تمنيت مغازلتك فقط. والآن سأعاملك على نحو مختلف».

اشتدت دقات قلبها فقالت:

«كلا يا ريك. دعنا نظل هادئين».

«ستكون كالاجراس والموسيقى وضوء القمر».

«ريك، لا تستعمل سحرك تجاهي، ربما لا استطيع مقاومته. وقد عشت...

هكذا كانت الحياة، ان نتأذى، وان تندمل جراحنا، وان نسعد. ايفين، لا تتحدي تيار الحياة».

ما أسهل الا تقاوم لو ان القدر تركها تقع في حب عازف الغيتار. لم تستطع الابتسام فقالت:

«ان الاسبان خطرون اذ يمكنهم ان يكونوا لطفاء. سأرقص في عرس صديقك. سيكون شيئاً من ذكرياتي بعدما اغادر الجزيرة».

«الا تعتزمين البقاء هنا؟».

هزت رأسها وقالت:

«كان مجرد تدبير مؤقت. عما قريب اذهب الى مدريد للعمل».

«ان لي في مدريد الكثير الذي يجب التفرج عليه معي. القديم والحديث. العتيق والجميل. سنكون سعداء هناك».

نظرت اليه وارادت ان تصدّق انها يمكن ان تكون سعيدة على بعد اميال من جزيرة زهور الدفلى العطرة واشجار الصنوبر، جزيرة الشمس والابراج تحت السماء الزرقاء.

«يبدو كأنك ستحزنين لمغادرة الجزيرة يا ايفا».

اخذت تتأمل شباك الصيد وصواري المراكب الشراعية، ثم استدارت نحوه وفي عينيها نظرة مروعة:

«سميتني ايفا».

«الم يعجبك؟».

«بل اعجبني».

«والاكثر من هذا يا ايفا ان اسم التصغير علامة اعجاب من الاسباني بك».

ضحكت وقالت:

«لقد اوقعتني في الفخ عندما جعلتني اسميك ريك منذ البداية!».

«آمل ذلك».

تلاقت نظراتهما، ورأت في عينيه حناناً. وارادت ان ترجوه بألاّ ينظر اليها هكذا، ولا بدّ انه فهم مرادها، اذ اخذ يحدثها عن اشياء اخرى. عن

طفولته في تلال اسبانيا، وطموحه لأن يكون اكثر من مجرد عامل يقطف اللوز والزيتون. وعن هربه من البيت في الخامسة عشرة من عمره وذهابه الى برشلونة حيث اشتغل خادماً في احد المطاعم، ثم اصبح تلميذاً لعازف غيتار يشبه الملاك ولكنه يعيش كالشيطان.

وقال ريك:

«لديّ فقط نصف مواهب ذلك الرجل، ولكني استغلها كل الاستغلال، وعندي طموحي ايضاً. افكر في جمع المال حتى اذا صرت غنياً اشتريت بيتاً كبيراً فيه اشجار اللوز وفيه نوافير. وسأكون رجلاً له زوجة وعائلة».

ابتسمت ايفين وقالت:

«انت تذهلني يا ريك».

«انت تظنينني بلاي بوي. انني اسباني قبل اي شيء آخر. ونحن نأخذ الحياة بروح جادة برغم اننا نغني ونحتفل كلّما سنحت لنا الفرصة. الليلة سترين كيف نمرح، وسأعلمك كيف ترقصين كاسبانية».

سألته:

«هل سنذهب الى الكنيسة لنرى حفل الزواج؟».

«سنذهب طبعاً يا عزيزتي».

كانت الشموع الطويلة تضيء فوق مذبح الكنيسة، ونورها يرسم هالة حول العروسين الواقفين امام القسيس وهما يتممان القسم. وكان كل شيء داخل الكنيسة يوحي بالخشوع، واخذ الحضور يركزون ابصارهم على العروسين.

وتأملت ايفين وهي صامتة ومأخوذة، بينما كانت طرحة العروس البيضاء تنبسط فوق كتفي العريس الواقف بجوارها، وذلك جزء رمزي من الاحتفال، معناه الوعد بان تخضع العروس له بالمحبة والوفاق. بعد ذلك وضع في يدها خاتم الزواج، وبنظرة خجولة الى وجهه وضعت خاتماً في يده. هذا التبادل للخاتمين رمز تحالفهما، واذا بتنهدات الرضى تعلو وسط جموع الحضور.

كان دخان الشموع يختلط برائحة القرنفل عندما اعلن القسيس انهما اصبحا رجلاً وزوجة. وابتسم الشاب الاسمر وضغط على اليدين اللتين

تمسكان زهر البرتقال، وكتاب صلاة مغلف بالصدف ومسبحة. كانا خجولين الى حد لم يقبّل احدهما الآخر امام الناس. ورأت ايفين ام العروس تمسح دموعها بمنديلها. ان قسم الزواج رباط مقدس، ولا افتراق عند الاسبان. وقد نظر كل من العروسين للآخر نظرة امل وثقة وفرح.

كانت الشمس عند الغروب في لون البرتقال والذهب المتوهج، عندما خرج الضيوف من الكنيسة سعداء وركبوا العربات الغريبة اللامعة التي جهزها والد العريس. وكانت الاجراس ترن حول رقاب الخيل وهي تتبع عربة العروسين الى بيت العريس. وكان بيتاً قوقازياً ريفياً في التلال، بجدران عالية وفناء فسيح تضاء فيه القناديل اول الليل وتزدان اغصان شجر الدفلى والسرو بأضواء خافتة.

تمايلت اثواب الفلامنكو الاسبانية الواسعة تحت الخصر، بينما راح الشبان يرفعون الفتيات من العربات. وكان الشبان يرتدون الثياب السوداء الانيقة والقبعات العريضة. وجاء بعض الضيوف على صهوات الخيل، وشعرت ايفين كأنما عادت الى الوراء قرناً او يزيد، الى ايام الاسبان القدامى وفرسانهم وقبعاتهم.

وابتسم ريك وهو يصحب ايفين عبر الفناء ليقدّمها الى والدي العروسين. كانت ايفين ترتدي منديلاً مطرزاً فوق شعرها زوّدها به مدرّسها من خزانة ثياب راكيل، وحظيت بنظرات الاعجاب من ام العروس وام العريس، وكانت كل منهما تضع في شعرها مشطاً عالياً يزدان بالاحجار الكريمة.

في مناسبات كالزواج تتزيّن الاسبانيات الكبيرات بما لديهن من حلي وجواهر اكثر من العروس. واخذت المراوح تهتز في الايدي والعيون تتلألأ. وانحنى شبان كثيرون على يد ايفين وهم يهمسون بالسرور العميق لتعرفهم بالانكليزية. واسرعت دقات قلبها وهي تحييهم بالاسبانية المترددة وهم يستجيبون بابتسامات السرور لأنها تعلمت لغتهم. كانت تبتسم وتقول:

«وجدت لغتكم وموسيقاكم وحفلات اعراسكم ساحرة للغاية».

ولعله كان يمكنها ان تضيف انها معهم تعيش من جديد صباها يوم كان والدها يحملها على كتفيه لكي تحضر حفلات الرقص الريفي في البراري في كومب سانت بليز حيث تلهو مع الصغار.

وهنا في حفل دوريتا والفارس، كان الصغار يندفعون حول الاشجار المزينة بالاضواء الملونة، ويقبضون بأيديهم قطع الثلج او البرتقال، ويرتدون ابهى الثياب ذات الكشاكش والسترات السوداء.

تطلعت ايفين حولها وجعلها المرح الكثير تتساءل عما اذا كان المركيز يتناول عشاءه هذه الليلة بمفرده. هل هو وحده في القلعة، ام هو مع راكيل التي تلف حوله ببطء شباك جاذبيتها؟ ترى هل وقوفه الى جانب عروس متلألئة وتقبله التهاني اصبح وشيكاً؟ الآن وقد شاهدت عرساً اسبانياً يمكنها ان تتخيل صورة المركيز بقامته الطويلة أمام هيكل الكنيسة والخاتم الذهبي اللامع في اصبعه بعد ما يكون قد وضع الخاتم للعروس في اصبع يدها المصبوغة الاظافر. وبعدئذ ترتسم الابتسامة على شفاه راكيل لأن خاتمه وقسمه يجعلانها مركيزة. وهي ستحسن اداء دور المركيزة.

ولكن ما يرمز اليه بسط طرحتها فوق كتفي دون جوان لن يكون له معنى حقيقي بالنسبة اليها. انها لن تخضع له انطلاقاً من حب حميم صادق.

أخرجها ريك من افكارها اذ سحبها من ذراعها قائلاً:

«هيا نتناول شيئاً من الطعام قبل ان يطلبوا اليّ العزف والغناء».

ورافقته نحو المائدة العامرة بألوان شتى من الاطعمة القروية الشهية، واختار كل منهما في طبقه ما راق له.

بدأ شاب وفتاة رقصة الفلامنكو على مهل، وكانت الموسيقى الوحيدة هي طقطقة الكاستانيت بين اصابع الفتيات ونقر خطوات الشاب الضيقة. ثم تسارعت خطواتهما الى ان دار كل منهما حول الآخر، واخذ ذيل ثوب الفتاة الملون المتعدد الثنيات يمس سروال الشاب الذي يراقصها. واخذت الموسيقى ايقاع رنات الكاستانيت ونقرات الكعوب، وبين الحين والآخر وكقلب يوقف احدى خفقاته، تتوقف الموسيقى ويواجه الشاب فتاته بشدة، وهكذا دواليك تواصل الرقص تحت اضواء الفوانيس والنجوم.

اعجبت ايفين بالرقص، وكانت كالحالمة لا تريد ان تفكر في اي شيء يتخطى ليلة العرس. لم تكن تريد ان تواجه الغد والواقع.

ارتشفت بعض عصير الفاكهة الذي ناوله اياها ريك وقالت:

«شكراً لانك دعوتني الى هذا المكان الليلة، حسناً فعلت، فما كنت لأضيّع هذه الفرصة».

«ستحتفظين [illegible] لن تشاهدي اي عرس اسباني آخر بعد هذه المرة».

«ربما احضر عرساً آخر، ولكن المرة الاولى لها سحرها وروعتها».

«مثل الحب الاول».

كانت اضواء الفوانيس تنفذ الى اعماق عينيه قبل ان تقول له:

«[illegible] تعظم المرة الاولى في حبي».

كان يحاول ان يقرأ في عينيها الواسعتين اللتين تزايد سحرهما الليلة سرّ [illegible]. تعجب وقال:

«جميع هؤلاء الناس يعتقدون اننا حبيبان. الاسباني لا يعرف شيئاً اسمه الصداقة بين رجل وفتاة. حب او عاطفة فقط».

«ولكننا اصدقاء!».

«لا تكوني بمثل هذه البراءة يا ايفين. الصديق بالنسبة الى الاسباني هو الشخص الذي يناقش معه السياسة وحفلات مصارعة الثيران».

«هل جئت بي هنا عمداً، حتى يعتقد كل شخص اننا اكثر من صديقين؟».

«هل تعنين انني عرضتك للفضيحة؟».

قال ذلك واطلق ضحكة صغيرة ولمس خدّها قبل ان تمنعه، واضاف:

«مسألة كهذه تتطلب اكثر من هذا يا صغيرة. قولي اني قضيت ليلة معك بمفردنا مع وجود شاهد على ذلك، وعندئذ يكون لزاماً عليّ كاسباني ان اتزوجك، والا تكونين فتاة ملطخة الاسم، لا تجد رجلا آخر يريدها زوجة له».

دقّ قلبها بقسوة وسرعة وقالت:

«تقصد ان احداً لا يصدق براءتنا؟».

«وهل يمكن ان تكون مثل تلك الليلة بريئة؟».

«نعم.. اذا كان الرجل شخصاً شريفاً».

ضحك ريك وقال:

«لا بدّ ان يكون من حجر. في كل حال، الامر سيّان حتى اذا كانت ليلة بريئة. سيتوجب عليه مع ذلك ان يتزوج الفتاة او يتركها تنضم للاشباح».

رددت ايفين:

«الاشباح؟».

«نعم، هذه عبارة تقال عن الفتيات المتروكات على الرف».

«هل تعني حقاً ان الاسبان يمكن الاّ يتساهلوا هكذا تجاه فتاة ميت بورطة بسبب قوة خارجة عن ارادتها او سيطرتها؟».

«للاسبان قواعد صارمة تتعلق بالشرف، وعليك ان تتذكري ان حواء هي التي اغوت اول رجل».

«ايها الرجال المساكين، لا بد انه من الصعب عليكم التعرّض لخطر كهذا».

ضحك وقال:

«صحيح، ولكن فكري في اللذات التي كنا سنفقدها بدون وجود الجميلات».

«اظن ان حواء ضيّعت علينا المبادرة لقيامها بالاغواء. انها جعلت آدم يعتقد انه جائزة علينا نحن النساء ان نفوز بها، ومنذ الخروج من الجنة وهو يتصرّف كأنه ورقة اليانصيب الرابحة في حياة الفتاة».

قال ريك بدون خجل:

«هذا صحيح بالنسبة الى معظم الفتيات. وانت هل تريدين العيش في الحياة بدون رجل يحبك؟».

استدارت ايفين لتنظر الى العروسين وقد غمرتهما السعادة واحاط بهما الاصدقاء، حتى ان ايفين تمنت ان لا تحجب واقعية الزواج نور النجوم الذي يتلألأ في عيونهما. انهما متحابان. . . ومعظم الناس يريدون ان يكونوا محبوبين، وبدون ذلك تبدو الحياة فارغة في جوانب كثيرة.

وفي هذه الاثناء بدأ الضيوف في طلب ريك ليعزف لهم. وسرعان ما اشتد سحر الموسيقى مع شذى الزنبق الذي سحقته الاقدام وبريق الفوانيس والاضواء الملونة على الوجوه الاسبانية المجتمعة في الفناء.

شعرت ايفين بالترحاب وسط هؤلاء الناس. كانوا اشبه بصورة مطرزة في لوحة من السجاد القديم. كانت وجوههم من النوع الذي لم تفسده الحياة العصرية بضغوطها ومشاقها. وعيونهم يقظة ومتقدة، ويبدا كأنهم يضعون كل قلوبهم في الاستمتاع بالموسيقى وينعمون بها كأنها العسل المصفّى. وسرعان ما تشابكت الايدي في حلقات كبيرة وبدأوا يرقصون.

كانت رقصة جديدة بالنسبة الى ايفين وقد احبتها، وكان الجميع على استعداد لتعليمها كيف تقوم بخطوات قصيرة ثم تليها خطوات

حينئذ، الى ان التقطت ايقاع الرقصة واحست بسحرها.

هل مضت ساعة ام ساعتان قبل ان تجد نفسها وحيدة تهز منديلها طلباً للانتعاش؟ كان بريق القمر في عينيها وجمال السماء يتجلى من خلال الشجر. الليلة وجدت ملاذاً صغيراً كاد يطمس ادراكها بان عليها عما قريب ان تغادر جزيرة القلوب الخئونة والايام المشمسة والليالي الساحرة.

خفتت وتنتهي الموسيقى ويعود ريك للبحث عنها. ويجدها بفضل هذا المشهد الجميل مستعدة للتغاضي عن تحرشاته.

[illegible] على عملي، وكنمر يستعد للانقضاض على فريسته، واقترب من الشجرة التي تستند اليها وقال:

«على المرء الاّ يغيب نظره عنك والاّ اختفيت».

«منذ فترة كنت تخشى على الحب».

«اظن ان عليّ الآن ان اضعك في مزهرية فضية انيقة واعجب بك».

ضحكت وقالت:

«فوق الرف».

وضحك معها وقال:

«تعالي، ان العروسين على وشك اعطاء حلوى من شجرة الآس المزينة خصيصاً لهما».

وضع يده في يدها وسارا مع بقية الضيوف المتجمعين حول العروسين لمشاهدة العروس والعريس وهما يقدمان الحلوى لكل شاب وفتاة من الضيوف. وكانت ايفين مشغولة بروعة اللعبة حتى انها فوجئت لما وجدت العروس دوريتا تقدم لها قطعة من الحلوى بينما العريس الفارس يقدم قطعة اخرى الى ريك. وانطلقت الضحكات. وما من احد علت وجهه الدهشة مثل ايفين، وبينما هي تستدير ناحية ريك شد انتباهها وجه امرأة في ضوء الفانوس، كان وجه العجوز التي نامت هي ودون جوان في كوخها ليلة الضباب. ذهلت. كانت تلك العجوز جزءاً من حلم انطمست معالمه، ومع ذلك كان وجهها لا ينسى.

كانت العجوز تحمل ابريقاً من عصير الفاكهة وتتولى توزيع اكواب منه على الضيوف. لا بدّ ان اصحاب العرس استأجروها لخدمة ضيوفهم، ولا بدّ ان ايفين كانت مفتونة بالحفل الى حد انها لم ترها الاّ الآن.

ابتسمت في تردّد بينما كانت العجوز تنظر اليها. كان المتجمعون حول ايفين يقولون:

«لا تخجلي يا آنسة، كلي الحلوى!».

ولكنها لم تستطع. لقد جف حلقها واشتد نبضها، ولم تكن تهتم لأحد غير تلك العجوز ذات الثوب الاسود، التي اقتربت منها وقالت:

«هل استطيع ان اقدم كوباً من العصير للسيدة؟». واضافت بعد ان اقتربت اكثر: «آمل ان يكون زوج السيدة في خير حال؟ انه سيد شريف كان سخياً بنقوده في الليلة التي قضيتماها في بيتي».

وفيما كان الاشخاص المجاورون لايفين يحملقون فيها والفضول يملأ عيونهم، قاطعها ريك قائلا:

«انت مخطئة، رفيقتي ليست متزوجة».

تطلعت العجوز الى وجه ايفين الشاحب وقالت:

«اذن لا عجب في ان السيد كان سخياً فيما دفعه لي».

سألها ريك وكأنه ينفث ناراً:

«ماذا تعنين يا عجوز؟».

«الأفضل ان تسألها هي يا سيدي».

وابتعدت المرأة كروح خبيثة، وتأوهت ايفين من الالم عندما امسك ريك معصمها وضغط باصابعه بشدة.

«هل فهمت ما قالت؟».

لقد فهمت ايفين بوضوح من وجهه، ان سرّها- مع دون جوان- قد افتضح، فقالت:

«نعم، فهمت بعض قولها».

بدا الشر في عينيه وهو يمسك بها من معصمها ويبعدها الى مكان معزول في الفناء:

«اريد منك تفسيراً اذا كنت لا تمانعين. مع من امضيت ليلة في كوخ العجوز، ولماذا قدمتما انفسكما كزوج وزوجة؟».

جذبت ايفين معصمها من قبضته:

«أخشى أن لا استطيع ان اخبرك...».

«أنا اصرّ على ان اعرف!».

«ولكنا ارفض ان اخبرك».

كانت ترتعش اذ شعرت فجأة ان العرس لم يعد له جاذبيته بالنسبة لها، وكانت تريد شيئاً واحداً فقط وهو العودة الى القلعة فقالت:

«بغض النظر عما المحت اليه المرأة العجوز، كانت تلك الليلة في كوخها بريئة ونتيجة لظروف خارجة عن ارادتي او...».

«وبقيت كلمة الاسم الذي لا يجب ان يذكر... اسم الوصيّ عليها. يجب ان لا يعلم احد، لأن ريك قال منذ برهة ان على الاسباني الذي يعرض فتاة للفضيحة ان يعيد لاسمها طهارته بالزواج منها! قالت بتوتر:

«اظن انه يجب عليّ ان اترك المكان».

اعترض سبيلها حيث كانت واقفة بين بعض الاشجار. وقال لها:

«كلا، علينا ان ننهي هذه المسألة. لا يمكننا ان نمشي ونتظاهر بانها لم تحدث. اريد ان اعرف اسم هذا الرجل... ان هويته فقط يمكن ان تبين لي اذا كانت الليلة التي قضيتها معه كانت بريئة كما تقولين. اريد ان اصدق براءتك».

شعرت ببرودة نسمة منتصف الليل على ذراعيها العاريتين وقالت:

«هذه شهامة منك. ولكنك بعجرفة الرجال تضع شروطك قبل ان تبرهن عن شهامتك. آسفة يا ريك. لا استطيع ان اخبرك باسم شريكي في المحنة، وعليك ان تظن ما تشاء...».

«هل كان هو دون جوان، لسبب ما؟».

تسمرت لحظة وظنت ان آهة كادت تخونها وتنطلق منها، ولكن الواقع ان الصدمة جمدتها. وكان عليها ان تبذل جهداً لكي تجيبه، فقالت:

«ما هذا الذي تقوله! لو كان دون جوان يريد مني شيئاً، لما احتاج لأن يأخذني الى بيت شخص آخر ليلاً!».

وابتعدت عن ريك قليلا وقد آلمها انه اجبرها على ان ينتزع تلك الكلمات منها.

«اذن من يكون؟».

سألها ريك بصوت متذمر، وهو يقف امامها متوتراً، وكأنه على استعداد للانقضاض عليها لينتزع منها اسم الرجل الذي تحميه. «اذن اي رجل آخر تعرفين على هذه الجزيرة؟ فيما عدا السيد فونسكا؟».

زحفت برودة اطرافها الى صوتها وهي تقول:

«هل تتهم الآن استاذي؟ ريك، هل هذا يهم. الا تصدق انه لم يحدث اي سوء؟».

«ولماذا تحمين الرجل بكل هذا العناد؟».

تنهدت وقالت:

«انت الشخص العنيد يا ريك. نسيت الاحد الذي كنا نتنزه فيه بالسيارة ثم تشاجرنا. لقد قابلت شخصاً آخر لا تعرفه».

كانت نصف الحقيقة هذه محاولة يائسة منها لتغطية الوصي عليها، وتجنيبه التعرض للفضيحة. انّ اخلاقيات هؤلاء الناس الصارمة ذات اثر عكسي اذ تثير الفضيحة، وانّ آخر شيء تريده هو ان تسوء صفحة دون جوان في نظرهم. انه ليس قديساً ولكنه يعتبر مثالاً للشرف والشجاعة والكياسة، ولعله قد يرى نفسه ملزماً على الزواج منها اذا شملتها الفضيحة.

تلاقت عيناها مع عيني ريك تحت ضوء القمر فرأت الغضب المحير ينعكس عليها، فقالت محاولة ان تخفف عنه:

«سامحني لأني حطمت اوهامك عني. يجب ان تصدق انه ما من شيء فظيع حدث سوى اننا شردنا في الضباب الكثيف واننا أوينا الى اول سقف وجدناه. كان طيباً ومهذباً وسأكون دائماً ممتنة له».

«هل انت مغرمة به؟».

بهرها السؤال، وكان عليها الا تتخاذل امام الاثارة، فضحكت وقالت:

«ان المرء لا يقع في حب شخص غريب. والاّ واجه تجربة مرهقة للاعصاب. ومع ذلك فلن انساه بسهولة».

«لا افهم كيف تسمحين لغريب ان ينتحل صفة الزوج لك!».

«ان المرأة العجوز هي التي افترضت ذلك... وقد ظن ان لا اهمية لذلك في تلك الظروف».

قال ريك:

«كم هو قصير النظر. ان تلك العجوز قد رأتك ثانية وفضحتك. وجميع اصدقائي سيعتقدون انك فتاة مغامرة».

تفحصت وجهه تحت ضوء القمر، ورأته عابساً حانقاً كأنه طفل وجد عيباً في لعبة احبها، فقالت:

«وهل انت تتأثر الى هذا الحد بظنون الآخرين؟ انك اسباني متزمت، أليس كذلك يا ريك؟ ويبدو أنني كاللواتي مكانهن الرف».

«لا تحولي المسألة الى مزحة!».

ابتسمت وقالت:

«من الامور المسلية ان اعد امرأة موصومة بينما كنت من بضعة اسابيع زهرة على الجدار...».

امسك بكتفيها وهزها وقال:

«ايفين، ان الفضيحة تنتشر هنا في هذه الجزيرة انتشار النار، وسيبدأ الناس بالتهامس عنك. الا تهتمين؟».

ان اكثر ما تهتم له هو الاّ يكتشف ان دون جوان كان الرجل الذي قضى معها الليلة في غرفة واحدة في الكوخ. لقد كان طيباً معها للغاية، وحضّ قلبها للتفكير فيه وأرادت ان ترد له الجميل الذي طوقها به، والاشياء التي اعطاها لها وخاصة اسابيع الدراسة مع والد راكيل. وفكرت في علاقته الرومانسية مع راكيل... وارادت لحظة ان تنحي هذا التفكير جانباً. قالت:

«اود ان اعود الى البيت. فقد انتصف الليل وبعض الضيوف يخرجون».

وكانت الكلمات قد تجمدت على شفاه ريك، فنظر الى وجهها الحزين الجذاب والقمر في عينيها، وشعرها الذي انساب على كتفيها بعد الرقص. منذ فترة كانا سعيدين ... وقد اعطاهما العروسان الحلوى. والآن انتهى العرس. وانقلبت حلاوة الحلوى الى مرارة على شفاه ريك.

ودّعا اهل العروسين، وغادرا المكان في سيارة صديق. وشعرت ايفين بالراحة عندما لاحت في الافق ابراج القلعة وقد افاض القمر عليها نوره. واحست مثل سندريلا التي توجهت الى الحفلة الراقصة كلها سعادة ثم عادت الى البيت والدمع في عينيها.

ودّعت ريك وصديقه في السيارة ثم اسرعت الى فتح باب القلعة الجانبي. وما ان اغلقت الباب وراءها حتى ابتعدت السيارة.

٨ - وقعت في حب الجزيرة!

كانت المصابيح الفراشية الشكل تشع اضواءها الخافتة في الباحة عندما عبرت ايفين المشى الذي قادها الى داخل القلعة. وكانت الفراشات الخضراء تهيم حول الشجر، واحد الضفادع ينق في حوض النافورة. والقمر ينساب في سمائه ساطعاً ويلقي نوره كغلالة فضية رقيقة على كل ما تحته في الليل الساكن.

وبينما هي واقفة تتأمل طبيعة الليل تناهت الى سمعها موسيقى البيانو من القلعة. كانت الموسيقى تتسلل ناعمة وحزينة، وشدتها الموسيقى فوجدت نفسها عند باب الغرفة الذهبية المفتوح جزئياً. توقفت واصغت. كان الوقت متأخراً جداً والقلعة ساكتة، كأنما هناك شبح في غرفة روزاليتا يعزف مقدمة شوبان. كان يعزف وحيداً في سكون الليل حتى ان ايفين ترددت في النظر الى داخل الغرفة.

خفق قلبها بهدوء، واخيراً تشجعت وخطت الخطوات القليلة التي مكنتها من رؤية العازف. كان فوق البيانو شمعدان يهتز لهب شمعتيه راسماً ظلالاً على وجه دون جوان.

تابع عزفه كأنما يتجاهل حضورها وان كانت تعرف بغريزتها انه شعر بوجودها، ولكنه مستاء منها. وكأنما سرعة دقات قلبها قالت لها انه كان ينتظر عودتها الى البيت. وكان من الواضح من ثيابه وربطة العنق الحريرية انه لم يذهب الى فراشه.

وعندما قاربت موسيقى مقدمة شوبان على الانتهاء، كانت سرعة دقات قلبها قد جعلتها تشعر باغماء. ارادت ان تبتعد وتتراجع عنه ولكنها لم

تستطع. وارادت ان تتحدث ولكن الكلمات لم تخرج من شفتيها. انها على استعداد لان تفعل اي شيء، ان تركع عند قدميه اذا لم يعاملها كطفل تأخر خارج البيت ولا بد من ان يؤنب وينال عقابه.

عبر السكون الغرفة، ثم استدار ببطء لينظر اليها. كان وجهه شاحباً يزيد من شحوبه القميص الحريري القاتم وربطة العنق. وشدتها عيناه وقد بدت فيها وميض الغضب. سألها بلهجة لاذعة:

«تعرفين كم الساعة؟»

كان صوتها يرتجف:

«اعرف... اني متأخرة، كنت مدعوة الى عرس في الكنيسة، واقيمت بعد ذلك حفلة للعروسين ولم نغادر المكان الا بعد منتصف الليل...».

«اعتقد انك تقصدين انت وماريك كورتيز؟».

«نعم يا سيدي».

«وكان العرس مرحاً، وزاهياً فشق عليك مغادرة الحفلة؟ وكان هناك موسيقى ورقص. ويبدو عليك انك استمتعت بالرقص».

«احب الرقص. وهل من العيب يا دون جوان ان استمتع بحفل عرس؟ هل انا صغيرة وبلهاء لئلا يوثق بي في اي مكان الا هنا او في عروسي؟».

نظر الى وجهها وثوبها والمنديل المطرز الذي يغطي كتفيها:

«انت لست في عمر يسمح لك أن تبقي في الخارج الى ما بعد منتصف الليل. والآن ادخلي واغلقي الباب. ارجو ان تخبريني من هم اصحاب العرس، لا بد انهم اصدقاء كورتيز؟».

احمرت وجنتاها وهي تغلق الباب بكل طاعة ووقفت امامه موقف الدفاع، وقالت:

«كانا ألطف عروسين. وقد اقيم الحفل في فناء دار واسعة في التلال يملكه والد الفارس العريس ويدعى السيد فيلاردي».

«اذن هو رجل له مكانته في الجزيرة. يسرني ان كورتيز اخذك الى اناس يمكنني الموافقة عليهم، فانني سمعت انه ليس دائماً بالشخص الذي يوثق به».

تعجبت ايفين وقالت:

«انت تتشدد! وانا لست بفتاة عاشت في دير ويتوجب حراستها. انت تنسى يا سيدي انني اشتغلت خادمة وكنت اقوم بخدمة الضيوف في حفلات بيت آل ساندل الريفي. وكان تغييراً لطيفاً ان اكون الليلة ضيفة في حفلة!».

«يسرني انك قضيت وقتاً ممتعاً، ولكن كوصي عليك لي الحق ان ينتابني القلق عندما تعودين الى البيت متأخرة».

تفحصت وجهه في ضوء الشموع. لم يكن قلقاً عليها، وانما كان متضايقاً، فقالت بعنف:

«لا حاجة بك لانتظاري الا اذا كنت تشعر بضرورة تأنيبي».

«انا لا اؤنبك يا صغيرتي».

ابتسمت وقالت:

«ولكن الحال اشبه بذلك. وعبوسك شديد حتى لم تعد لي قدرة على الوقوف، واذا بقيت هكذا فمن المحتمل ان انهار على السجادة من الخوف!».

ضحكت شفتاه وقال:

«اظن انني نسيت ما معنى ان يكون الانسان صغيراً وينسى الوقت مع رفاقه. ونسيت انك لم تشهدي ابداً عرساً اسبانياً وانك كنت مفتونة به. اخبريني اي مشهد اعجبك اكثر من غيره».

وبعد ذلك حرك ساقه وهو يمسك بعصاه الابنوسية التي لا تبعد عن يده.

عادت تتذكر هيكل الكنيسة والشموع، وطرحة العرس المطرزة التي بسطتها العروس على كتفي العريس وتبادل خاتمي الزواج، وقالت:

«الاحتفال ذاته يا دون جوان».

وفجأة، وبخفة الشباب، ركعت ومدت مقعداً بثلاث قوائم تحت ساقه اليسرى. ونظر اليها فغابت في اعماق عينيه. فسألها:

«ولماذا فعلت هذا؟».

أجابته وهي راكعة امامه وثوبها يشبه بركة خضراء من حولها، وشعرها يتدلى حول عنقها ووجهها يتطلع اليه من اسفل وقد بدا شاحباً في ضوء الشموع، وفي عينيها خجل لأنها اخيراً تجرأت وحدثته عن المه.

[illegible] حتى الملاحظة».

«انت مترفع جداً - دائماً - الى حد لا تبوح فيه بما يؤلمك يا سيدي».

[illegible] عيناً يا ايفين اذا تأوهت في كل مرة اشعر فيها بوخزة ساقي. [illegible] العيش بها، وعليك الا تدلليني».

ابتسمت وقالت:

«يحق لنا جميعاً ان نتدلل بين حين وآخر».

[illegible] الى الأمام، وامسك معصمها بأصابعه الطويلة، فانفعلت لرد [illegible]... والرعشة التي تغلغلت في عظامها، وقال:

«ايفين، لا تفكري في العبودية مرة اخرى. انت لست مدينة لي بأي شيء، وعلى الأخص عطفك. هل فهمت؟».

اطلقت زفرة مهزوزة وقالت:

«نعم فهمت. يمكنني ان آخذ منك اشياء لأن عندك المال، ولكنك ترفض اي ذرة من الامتنان اسديها لك. ليس هذا بكثير، ولكنه كل ما املكه».

ابتسم على نحو غريب عندما قالت ذلك:

«ان بريق عينيك يجعل المرء يظنك فتاة اسبانية، ستجدين بالقرب من النافذة البعيدة ابريقاً فيه عصير البرتقال. وفي الخزانة المجاورة للنافذة عدد من الأكواب».

هبت واقفة واتجهت الى النافذة ذات الستائر الحريرية. وانهمكت في ملء كوبين من العصير. وسرى في كيانها خاطر كالعاصفة وهو ان دون جوان قد يتحطم اذا هو احب امرأة لا يفهمها. ولم تستطع ان تصدق انه احب راكيل فونسكا بمثل هذا النحو. ان راكيل لن تقلق اذا هو فعل ذلك، وهي تسعى لاشباع فضولها، وتريد ان تحظى باعجاب الرجال الآخرين الموجودين على شرفة نادي هيدالغو اما هي فستكون قانعة... وسعيدة جداً اذا هي نعمت بحب مركيز الجزيرة.

حملت ايفين عصير الفاكهة الى حيث يجلس دون جوان. كان حقيقة ماثلة امامها ومع ذلك بدا في الوقت ذاته مجرد جزء من الحلم الذي ستحمله معها وستتذكره هنا كجزء من السحر الاخاذ لغرفة المرايا الذهبية، والبيانو باطاره الرائع، ولوحات الوجوه الاسبانية المرسومة على خلفية ذهبية.

وقدمت له الكوب: «ها هوذا يا سيدي». وودت لو يعزف مقطوعة اخرى، فهمست:

«ليتك تعزف شيئاً آخر قبل ان اسرع الى النوم».

شدتها عيناه وهو يقول:

«الم تسمعي ما يكفي من الموسيقى هذه الليلة؟ انا واثق ان كورتيز عزف لك بغيتاره وليس من آلة اخرى تعطي روعة الحس الاسباني مثلها».

وتعلقت عيناها بالغيتار المعلق بالأشرطة القرمزية الى جوار صورة روزاليتا. في امكانها ان تتصور دون جوان صبياً جالساً عند ركبة امه يستمع اليها وهي تعزف له وتغني عن الأرض التي فرت منها... سألها:

«اي شيء تريدين سماعه؟».

نظرت اليه وعرفت ان المعزوفة لا بد ان تكون شيئاً لا تنساه:

«اعزف لي شيئاً تهواه».

«حسناً يا ايفين».

وضع الكوب جانباً، وجلست هي بين وسائد مقعد مريح. واسرعت دقات قلبها من نشوة وجودها معه. واغمضت عينيها عندما شرع يعزف، وكانت هي الموسيقى التي كان يمكن ان تختارها، حلوة وحزينة، حزن عاشقين يتحتم عليهما الافتراق.

عزف مقطوعة حب تريستان وايزولد، وطوال عزفها كانت ايفين تشعر وكأن امه موجودة في الغرفة. ان روزاليتا كانت تتخذ من هذه الغرفة ملاذاً لها من برودة اهل زوجها. في هذه الغرفة كانت تنتظر عودة زوجها اليها من اسبانيا، واخيراً فرت لتنضم اليه، وقد حاربا معاً في التلال كمحاربين. ومات في التلال فرحلت بابنها بعيداً بعيداً جداً. وعلمته ان يحب الموسيقى... ولكنها علمته ايضاً ان يكون حذراً من الحب.

نظرت ايفين الى صورة روزاليتا، وبدا لها كأنما عيناها تلتقي بعينيها وتحدثها قائلة ان الحب الكثير قد يجلب لها وجع القلب، وان عليها ان تنتبه قبل ان تصبح حياتها تعسة بسبب حب لم تخلق له.

وتوقفت الموسيقى بهدوء وادركت ايفين ان الدمع يبلل عينيها واغمضتهما وابعدتهما بسرعة قبل ان يستدير دون جوان لينظر اليها. كانت عيناه تشبهان عيني امه في الصورة. والموسيقى التي عزفها عن حب محرم،

فقد اخبرها بطريقته الناعمة ان عليها ان تتركه مثلما جاءته الجزيرة ضالة. سألها:

«هل اعجبتك المعزوفة التي اخترتها لك؟».

هزت رأسها:

«كانت جميلة يا سيدي، مثل اللحظة التي يسطت فيها العروس طرف طرحتها على كتف زوجها. شيء خاص جداً للذكرى».

«أتعرفين معنى هذا الجزء من مراسم الزواج؟».

«اعتقد ان ذلك يعني ان العروس تسلم ذاتها الى سلطة الزوج، يبدو انه شيء من هذا القبيل، وكان شيئاً جميلاً، الطرحة البيضاء على سترته السوداء وشعرها الأسود يربطهما معاً».

«ان قسم الزواج الاسباني رباط ابدي يا ايفين، على الأرض وفي السماء، وسواء كانا معاً او كانا مبتعدين. لهذا السبب يجب على الرجل ان يكون على ثقة، ويجب على الزوجة الا تتعامى عن الاشياء الاخرى الخارجة عن نطاق الحب. وعليها ان تشعر نحو الرجل بأكثر من الاعجاب او العاطفة وبأكثر من الامتنان لأنه ربما كان طيباً نحوها. في البداية يكون التألم في الحب اكثر من السرور به».

لم تستطع ايفين ان تقرأ التعبير المرتسم على وجهه، ففي تلك اللحظة تعثرت احدى الشموع. ولكن حديثه عن التألم في الحب معناه انه يشعر به، وأنه وقع في الحب، وانه سيتزوج ليس فقط من اجل انجاب وريث يحمل اسمه. سيتزوج من اجل الزواج نفسه لأنه يريد المرأة اكثر من اي شيء آخر على الأرض.

وأخيراً بدت الغرفة باردة. وشعرت ايفين برعشة. واخذ ضوء الشموع يذبل. فنهضت من مقعدها المريح وقالت:

«الوقت قد تأخر جداً. ربما يغشاني النوم اثناء دروس الغد».

«اجل، على كل منا ان يأوي الى فراشه».

ومد يده ليلتقط عصاه، ولكنها زلقت من يده ووقعت على الأرض. وفي لمح البصر اسرعت ايفين الى الأمام لكي تلتقطها. وقدمتها اليه بابتسامة تلاشت في الحال بعد نظرته القاسية اليها وهو يأخذها. نظرة قاسية كأنما ضربها بالعصا.

تراجعت حائرة خائفة وهو يقول:

«اذهبي الى غرفتك!».

فقالت والكلمات ترتعش على شفتيها:

«الا تقول طاب مساؤك؟».

«طابت ليلتك. في المستقبل احتفظي بشفقتك ولا تستعيدي الأشياء التي تسقط مني كأنما انا عاجز ضعيف!».

اجابته:

«آسفة».

ولكن كلماته جرحتها وخنقتها دموعها وهي تجري خارجة من الغرفة، وصعدت الدرج المؤدي الى غرفتها. لم يكن طيباً اطلاقاً، بل كان متكبراً وقاسياً وارادت ان تغادر بيته! ارادت ان تبتعد اميالاً. وغداً سوف تطلب من السيد فونسكا ان يرتب لها الذهاب الى مدريد باسرع ما يمكن. هناك تحصل على عمل وتعيل نفسها. محاولة ان تنسى المركيز وقسوته بالابتعاد عنه.

نامت نوماً متقطعاً وكانت مسرورة عندما اتى الصباح. وقد اطمأنت لان دون جوان لم يشاركها الافطار في الباحة، وبحلول الساعة التاسعة كانت في طريقها بالسيارة الى فيلا فونسكا.

وبعدما دخلت الفيلا، جاءتها راكيل عبر القاعة وهي بادية الاضطراب، وقالت:

«والدي مريض، والطبيب معه، عليك ان تعودي يا ايفين الى القلعة. لا يمكنك البقاء هنا لأنني اريد التفرغ للعناية بأبي».

قلقت ايفين على الفور من اجل استاذها:

«آسفة يا راكيل! اظن انه كان متعباً بالأمس والطقس كان حاراً، واعتقدت ان سبب تعبه حرارة الطقس».

علقت راكيل قائلة:

«كان من حين الى آخر يشكو من وجع جنبه. وقد حذره الطبيب من رفع الكتب الثقيلة التي في مكتبته، والآن قد اجهد قلبه وعليه ان يرتاح لاسبوع او اكثر».

شعرت ايفين بحرج وقالت:

«مسكين السيد فونسكا. هل من شيء استطيع تقديمه للمساعدة. انا معجبة به كثيراً و. . .».

قالت راكيل:

«هناك يا عزيزتي خدمة يمكنك القيام بها من اجلي. يمكنك اخذ رسالة نيابة عني الى السيدة غرايسون الاميركية التي وجهت لي دعوة للغداء معها اليوم على ظهر يختها، انها لطيفة واحب ان اعتذر لها».

مكثت ايفين حتى كتبت راكيل رسالة الاعتذار على مكتب صغير انيق في الفيلا. كانت مهتمة بالاعتذار عن دعوة الغداء بمثل اهتمامها بأبيها المريض. وشعرت ايفين بتذكرها ان الوالد للفتاة شخص عزيز جداً عليها، ما من احد يمكن ان يحل محله. ما من رجل آخر في حياة الفتاة يمكن ان يكون لطيفاً ومتفهماً. وما من حب آخر كان مأموناً وغير متطلب مثل الحب الأبوي.

سلمتها راكيل مظروفاً صغيراً مغلقاً وقالت لها:

«ان الدلفين الأزرق، يخت السيدة غرايسون، يرسو على بعد ميل من الجزيرة، واحد صيادي السمك يمكن ان يتولى نقلك الى اليخت في قاربه. اليخت سفينة رائعة وكنت اتطلع للتفرج عليه. كما ان السيدة لمحت الى دعوتي لرحلة على ظهره. . .».

همست ايفين:

«ان رحلة بحرية هي بالتأكيد فرصة حسنة لوالدك».

فأجابت راكيل وهي تنظر ناحية سلم غرفة النوم:

«بالطبع. . . يحسن بي ان اصعد اليه».

«ارجو ابلاغه تمنياتي له بالشفاء، واني سأفتقد دروسنا».

وقالت راكيل في حدة:

«لا ينبغي له ان يعطي دروساً. ان حمله لتلك الكتب الثقيلة قد اضطرنا الى حمله الى غرفة نومه!».

عضت ايفين شفتها وقالت:

«لن آخذ المزيد من الدروس. كنت سأتحدث اليه اليوم بخصوص عملي في مدريد. اشعر اني جاهزة للعمل».

سألتها راكيل وقد خطر لها ان تتنبأ:

«هل تعنين انك تودين مغادرة الجزيرة؟ الست سعيدة في القلعة؟ ان جوان كان سخياً معك، ولكني اعتقد ان طيبة الرجل تعني القليل بالنسبة الى الفتاة اذا كانت الطيبة ليست بدافع اهتمام شخصي. ان جوان كريم بطبعه».

جفلت ايفين، لأن احسان دون جوان هو آخر شيء على الأرض تريده. وضعت رسالة راكيل في جيب سروالها الخلفي ذي اللون الاصفر الشاحب. وحاولت ان تبدو مرحة مثل قميصها البرتقالي الرياضي وقالت:

«سأحضر غداً ان استطعت، للسؤال عن صحة الاستاذ؟».

«تعالي اذا كانت هذه رغبتك. واكدي للسيدة غرايسون انني آسفة جداً لعدم تلبية الدعوة، اذ علي ان اكون ابنة مخلصة واظل الى جانب والدي».

وقالت ايفين بصدق:

«ليست كل فتاة لديها مثل هذا الأب الرائع. اتمنى له الشفاء العاجل يا آنسة. الى اللقاء غداً».

خرجت مرة ثانية الى الشمس ثم سارت في الطرق المرصوفة بالحصى والموصلة الى الميناء. كان كل شيء في هذا الصباح يفوح برائحة الخوخ، وتكدرت لأن السيد فونسكا قد لزم فراش المرض. انه يحب جمال هذه الجزيرة المختفية بعيدة عن العالم حتى ان الأساطير القديمة وخرافات السحر لا تزال تعشعش فيها. احست بالشمس على ذراعيها وهي تعبر الساحة ذات النافورة القديمة التي يعود طراز زخرفتها الى العصر الباروكي، وتجمعات البيوت التي تزخر شرفاتها بالزهور المعلقة. وكان البطيخ يباع على منصة قريبة من الكنيسة. وتوقفت لتشتري شريحة باردة سرتها حلاوة طعمها، وذلك قبل ان تصل الى شباك الصيد والصواري الممتدة على الشاطىء.

كانت تبحث عن بحار يملك قارباً وعنده فراغ من الوقت ليكسب القليل من المال مقابل نقلها الى اليخت. وكان من حسن الحظ انها تحمل بعض النقود في جيبها، لأن راكيل لم تفكر في اعطائها النقود اللازمة لتأدية مهمتها.

ولمحت ايفين شاباً يستند الى نخلة قرب قارب على الشاطىء. وكانت

الشمس قد اعطته جاذبية البحار، فاقتربت منه وسألته اذا كان في وسعه ان يقلها في قاربه الى يخت الدلفين الأزرق، الذي يبدو في لونيه الأبيض والأزرق راسياً على مسافة ميل من الشاطىء.

والقى نظرة الى ثيابها غير الرسمية وشعرها الذي ينساب على كتفيها وسأل:

«هل للآنسة اصدقاء على ظهر اليخت؟».

«معي رسالة للسيدة التي تملك اليخت. واود ان تعود بي الى الشاطىء بعد تسليمها».

هز رأسه موافقاً، وبدأ يسحب القارب وينزله الى الماء. وثبت القارب الصغير الى ان ركبت ايفين وجلست على لوح خشب بشكل مقعد وشعرت بلحظة خوف عندما نزل المجذافان الى الماء واخذ القارب يبتعد عن الشاطىء. ثم زال خوفها في جمال الميناء ونسمة البحر المنعشة تمسح وجهها وكانت المياه زرقاء حتى كادت تتوقع انها ستلون اطراف اصابعها عندما تلمسها، والطيور تسبح في الفضاء، وبشرة الشاب السمراء تداعبها خصلات شعره. وقال:

«لا يأتينا كثير من السياح الى هذه الجزيرة. انهم لا يجدون تشجيعاً من المركيز الذي يود ان تبقى الجزيرة بغير تلوث وفساد».

علقت قائلة وقد علت شفتيها ابتسامة مرحة:

«ارجو الا يظن المركيز اني افسدت له الجزيرة».

وبنظرة اعجاب جريئة قال الشاب:

«كلا، لو ان جميع السياح في جمال الآنسة، فأنا واثق من ان المركيز سيكون مسروراً للغاية».

«لا اظن».

ثم اطلقت ضحكة مشوبة بشيء من الحزن ولاحظت اقترابها من يخت الدلفين الأزرق.

«مرحباً».

صاح شاب بلهجة اميركية وكان يرتدي زي البحارة وقد ازاح طاقيته الى الوراء. وانحنى على جانب اليخت عندما وصل القارب، ولوحت ايفين بالرسالة موضحة انها تريد تسليمها.

«هيا اصعدي!».
ترددت ايفين اذ كان البحر يموج قليلاً حول اليخت. وكان لا بد من ان تحافظ على توازنها لكي تخطو من القارب الى درجة السلم الموصل الى ظهر اليخت.
وسمعت الصوت يقول لها:
«اصعدي ولا تنظري الى اسفل».
وما ان وصلت الى اعلى حتى رفعتها ذراعان قويتان، وضحكت وصافحت عيناها عينين زرقاوين نظر اليها قائلاً:
«هذه مفاجأة! هل يوزعون البريد في هذه الجزيرة بواسطة الحسناوات المحليات؟».
«من دونا راكيل».
تأمل مظروف الرسالة وقال:
«الى والدتي اليس كذلك؟».
اجابت بالانكليزية:
«السيد فونسكا ليس على ما يرام وقد رأت راكيل ان من الأفضل ان تظل معه. وهي مستاءة بخصوص تغيبها عن المجيء الى اليخت».
نظر الى ايفين ثم ضحك وقال:
«اذن فأنت لست سنيوريتا. انت سائحة مثلي».
نفذت الكلمة الى اعماقها كأنها سكين، ولكنها كانت كلمة صادقة. انها فعلاً سائحة فقط وقعت في حب هذه الجزيرة. انها لا تستطيع البقاء فيها مثل صيادي السمك او النسوة اللواتي يجمعن عشب البحر على الشاطىء، او طالبات الدير اللواتي يسرن مع الراهبات.
«جزيرة دي ليون مكان رائع».
هذا ما قاله ابن السيدة غرايسون وهو ينظر من سطح اليخت الى الجزيرة، ثم سألها:
«هل انت مقيمة عند آل فونسكا. ان راكيل لم تذكر وجود ضيفة لديهم...؟».
لقد اعفى ايفين من الرد وذكر مكان اقامتها، ظهور سيدة على سطح اليخت في تلك اللحظة. كانت ممتلئة الجسم، رمادية الشعر وترتدي ثوبا

ببنطلون سألت:
«كينت، من الذي جاء لزيارتنا؟».
اقتربت بابتسامة متسائلة ثم اتسعت عيناها عند رؤية ايفين وقالت:
«اهلاً. هذا شرف لنا. لقد رأيتك منذ يومين وقيل لي انك تحت وصاية المركيز دي ليون».
جفلت ايفين وشعرت كأنها تريد ان تتجه الى الممر الخشبي ناحية جانب

وعلقت السيدة غرايسون:
«ايفين والأسد! (ليون)، ما اغرب روعة التعرف عليك يا عزيزتي. هل انت صديقة ابني كينت؟».
كان كينت يتابع حديثهما فأسرع الى تسليم رسالة راكيل الى امه:
«ان الآنسة احضرت هذه الرسالة».
فتحت الرسالة وقرأتها واعربت عن اسفها لمرض السيد فونسكا، ثم قالت انه ما دامت راكيل لم تستطع مشاركتهما على الغداء فيجب ان تحل ايفين محلها.
كانت ايفين تريد ان تتجنب الرد على الاسئلة التي تتعلق بالمركيز، اذ كان الفضول بادياً في عيني السيدة غرايسون، فقالت:
«كلا، لا استطيع...».
«انني اصر يا عزيزتي، وسأتركك تذهبين اذا كنت ستقابلين المركيز على الغداء».
وكانت بتينا غرايسون سيدة اعتادت على الا يرفض لها احد دعوة.
حاولت ايفين ان تكذب كذبة بيضاء، ولكن صدقها تغلب فقالت ان المركيز لا يتوقع عودتها على الغداء:
«ولكن لدي بعض الدروس التي اريد مراجعتها».
تعجبت السيدة غرايسون وتساءلت:
«دروس، دروس لغة يا عزيزتي؟».
«أجل».
«بالتأكيد يمكنك تأجيلها. اننا أنا وكينت نحب ان تشاركينا الغداء. ولن اقبل الرفض». ونظرت الأم الى ابنها وتابعت: «سنأتي بالمقبلات الى

سطح اليخت، انا مشتاقة للتعرف على بطلة حكايتنا الطفولية».
تحدثت ايفين وهي تتفادى النظر مباشرة الى عيني كينت:
ولقد جاء بي صياد بقاربه وهو ينتظر للعودة بي الى الجزيرة».
قال كينت بابتسامة:
«سأذهب وابلغه بأنك لن تعودي الآن، وانما بعد فترة».

٩ - فتاة الحكاية الخرافية

وجدت ايفين انها تقابل كينت غرايسون كثيراً في الأيام الأخيرة. كانت صحبته من النوع السار، وكان السيد فونسكا قد لزم الفراش بسبب مرضه فأعطاها ذلك الوقت الكافي للتجول في الجزيرة مع كينت الذي كان يعشق التصوير الفوتوغرافي. وقد التقط صور اماكن قديمة واخرى رائعة.

وبالطبع رغب في زيارة القلعة، ولكن ايفين كانت تنتحل الاعذار حول ذهابها اليها لمقابلة الوصي عليها. وكانت تقول له ان دون جوان لا يعتبر بيته مكاناً سياحياً.

وكان كينت يقول:

«ولكني صديق لك، وأنت تحت حمايته، وبالتأكيد يمكنني ان ارافقك الى القلعة وتقدميني له؟».

«انه يحب حرمته البيتية».

«هل انت خائفة منه؟».

سألها ذلك وهو يلتقط لها صورة وهي جالسة على جدار قرب شجرة لوز مزهرة.

«بالطبع لا!».

«يبدو انك كذلك يا عزيزتي. هل هو صارم ويتحكم فيك بشدة؟».

ضحكت وقالت:

«انه وسيم للغاية. واذا تعكر مزاجه احياناً، فذلك يرجع الى انه عانى حزناً في حياته، وتعذب من ساقه التي تؤلمه والتي كاد يفقدها في حادث ركوب جواده. كان يحب ركوب الخيل، وكان من رعاة البقر في شبابه».

استند كينت الى الحائط واشعل سيكارة. وضاقت عيناه وهو ينفث الدخان، وانعكست اشعتها الزرقاء على وجهها، ثم سألها:

«كم يبلغ عمره الآن؟».

«انه في الخامسة والثلاثين تقريباً».

وبدت ايفين صغيرة وهي تسوي شعرها بأناملها، ولكنها بدت ايضاً غير واثقة من المستقبل. لم يكن في وسعها ان تحدث استاذها عن العمل الذي سيساعدها في الحصول عليه في مدريد قبل ان تتحسن صحته.

ارتسمت على شفتي كينت ابتسامة وقال:

«كان لدي انطباع بأنه اكبر سناً. وتقولين انه وسيم ايضاً؟ ومن العجيب انك لست مولعة به. وقد سمعت ان الاسبان لديهم جاذبية اسبانية ساحرة».

ابتسمت وكررت قوله:

«جاذبية اسبانية؟».

انحنى كينت الى الامام وداعب ضفيرتها مما ذكرها بالعازف ريك وجعلها تخجل من لمسه لشعرها، وقال:

«تعرفين ما اقصد يا آنسة بلغريم. هل تخجلين من الرجال يا ايفين؟».

«انني احب الصداقة».

«لأنها اكثر راحة».

«لا ارى معنى لأن تغازل الفتاة كل رجل تقابله».

«انت تعتقدين ان جوانب معينة من العلاقة بين الرجل والمرأة ينبغي ان تكون مقدسة. بينها وبين رجل واحد فقط. هل التقيت مع فتاة من الطراز القديم التي لا هم لها الا الأمان الذي يوفره الزوج للفتاة؟».

«كينت، ليس النساء جميعاً مرتزقة!».

«النساء اللواتي التقيت بهن لسن من النوع الذي يبني عش الحب».

«لقد فررت من الوقوع في حبائل احداهن. انت اذن طائر مراوغ تعرف ما تريد».

«ولعلّي اريد واحدة مثلك؟». قال ذلك في استخفاف ولكن بوميض في عينيه، ثم اضاف: «هل انت يا ايفين حرة القلب؟».

«نعم، وسأظل كذلك».

... من فوق الجدار المنخفض، واتجها معاً الى مطعم في الشاطئ، ... الشمسي موائده.

... المشي في الشمس جعلهما يشعران بالعطش، ولهذا طلب كينت عصير فاكهة مثلج وسأل الخادم ان يحضر قائمة الطعام بعد ربع ساعة.

... مياه البحر لا تبعد عن مائدتهما غير بضعة امتار، وكان سرب من ... البحر يتراخى في كسل عند موجات البحر.

... ايفين مسرورة لارتشاف عصير مثلج في رفقة شاب جذاب، ... ايضاً لانسياقها في علاقة جديدة يمكن ان تعطيها عاطفة اكبر من ... ريك، ولكنها اقل من النشوة العارمة التي تحلم بها.

... تميل الى كينت. وامه لطيفة طيبة القلب وان تكن فضولية. بالأمس ... كانا يجلسان على سطح اليخت نحو ساعة وهما يحلمان تحت سماء ... النجوم، لمحت السيدة غرايسون الى ان ايفين هي نعم المرافقة. ... عما قريب سيبحران الى اسبانيا، والى البرتغال ثم يعودان الى وطنهما ... وباستطاعة ايفين ان تذهب معهما... اذا اختارت ذلك.

... كينت يدها وضغط اصابعها النحيلة وقال:

«هيا تعالي من هذا البعيد الذي شطحت بخيالك اليه. فقد شعرت ... وحيد وكأن لا مكان لي في خواطرك».

... له وقالت:

«ولكنني كنت افكر فيك، وسأفتقدك يا كينت عندما تبحر».

قال ملاطفاً:

«ابحري معي. امي تحبك. ويمكنك ان تعملي كمرافقة كما المحت ... ، ويمكننا نحن ان ندع الأمور تأخذ مجراها في لطف وسهولة بيننا. واذا ... تطور الأمور بيننا، ولن يكون هذا لقلة التشجيع من جانبي، عندئذ لن تكوني قد خسرت شيئاً. لقد قلت لي انك ستغادرين الجزيرة للعمل في مدريد. ماذا ستفعلين هناك وحدك؟ فتاة مثلك، اشبه بقطة صغيرة ذات نظرة ضائعة في عينيها، وهذا يا ايفين يجعلني اتعجب».

قالت ضاحكة:

«انني الآن جائعة واشتهي اكلة فريدس لذيذة. هيا طقطق اصابعك مثل الاسبان ودعنا نلقي نظرة على قائمة الطعام».

«انا لست اسبانياً يا عزيزتي».
استقرت عيناها على شعره القصير، وعلى طلته الاميركية وهو يتأمل البحر ويطبق على شفتيه، وقالت:
«كلا، ليس فيك اي شيء اسباني يا كينت».
«وهل بغير ذلك من شيء؟».
«على العكس، ان ذلك يجعلني اشعر بالطمأنينة».
«على ارض صلبة ليس تحتها اي نيران او براكين خفية».
ضحكت ثانية، وتجاهلت وخزة الألم مع تذكر غليان البركان في دون جوان. وغضبه عندما التقطت له عصاه الابنوسية. وامره لها بأن تحتفظ بشفقتها لنفسها. الشفقة؟ انها لم تشعر ابداً بشيء من هذا لرجل قوي للغاية وناضج جداً ويعتمد على نفسه كلياً. انها ارادت فقط ان تعطيه شيئاً قليلاً من دفء قلبها.
استند كينت الى ظهر مقعده وكوب العصير في يده وقال:
«الثابتون يقدمون على المدى البعيد اكثر مما يقدمه الاشخاص الغامضون الذين لا يستطيع المرء ان يتصل بهم اتصالاً وثيقاً. واعتقد انك اذا جئت معنا، وتركت هذه الجزيرة بدون التطلع الى الوراء ستجدين السعادة».
نظرت اولاً الى كينت ثم الى جبال اسبانيا البعيدة وقالت:
«ان العمل في مدريد كان هو كل ما استقر عليه رأيي قبل مجيئك. وكان والد راكيل يساعدني في دراسة القطع الفنية والاثرية».
«توجد في ولاية كاليفورنيا مؤسسات ومخازن لبيع الآثار الفنية، وسأكون الى جانبك يا ايفين».
«والاميركان باعة مثابرون على ما ارى».
«وفي كاليفورنيا وديان البرتقال وبيوت من الحجر الأبيض. وستعجبك الحياة هناك».
«وهل تعيش انت ووالدتك يا كينت في بيت من الحجر الأبيض؟».
ابتسم ابتسامة جذابة وقال:
«نعم. وفي البيت باحتان فيهما اشجار بنفسجية الزهر. ومنظرها رائع وعلى الأخص امام الجدران البيضاء».

اطلقت تنهيدة شخص غير واثق وقالت:
«كلا، انا لا استطيع تقرير اي شيء قبل التحدث بهذا الشأن مع الوصي عليّ».
«انه وصي مؤقت يا ايفين، وانت لست ملكاً له».
«كلا...».
«هل يتصرف كأنه يملكك؟».
«كلا. ولكنه احسن الي. لم يكن لدي اي شيء عندما انقذوني من البحر وجاء زورق الصيد بي الى الجزيرة. وقد رتب مع السلطات الاسبانية بقائي هنا كزائرة. وطلب لي ثياباً انيقة من مدريد. واقنع السيد فرنسكا بأن يتولى تعليمي... لم اكن غير خادمة ومرافقة. وعاملني كأنني احدى قريباته».
«اليس كابنة له؟».
ابتسمت قليلاً:
«انه ليس كبيراً الى هذا الحد».
«اود ان اقابله يا ايفين. واشعر انه يتحتم عليّ ذلك في هذه الظروف. واعتقد انك تميلين الى قبول العمل لدى والدتي، واذا تحدثت الى المركيز فانه على الأقل لن يشك في مكانة عائلتي التي ستعملين عندها. ويخيل الي ان المرأة الاخرى التي كنت تشتغلين لديها كانت متوحشة نوعاً».
«نعم كانت اشبه بالتتار. وربما انا ايضاً قد سمحت لها بالتسلط علي، وقد علمني اختلاطي بالاسبان ان الاعتزاز لا يعني الضغط على الآخرين وان الناس سواسية. انني لم ار ولم اسمع طوال مدة اقامتي في القلعة غير معاملة دون جوان اللطيفة تجاه حاشيته. انه متحفظ وهذه طبيعته، ولكنه لا يستأسد على الضعفاء».
«وهل تأخذيني لمقابلته؟».
«كينت، دعنا ننتظر يوماً او يومين...».
«ولكننا سنترك الجزيرة يوم السبت! وليس امامنا غير مهرجان يوم الجمعة نمرح فيه. وعليك ان تقرري يا ايفين. يخيل الي ان المركيز اذا قال لا بخصوص اي شيء، فانك تنصاعين له».
احتجت وقالت:

«ليس في كل الأمور».

«ومتى اعترضت عليه؟».

«مثلاً فيما يتعلق بالشاب ريك. كان المركيز غير متحمس لصداقتي له. وقد وجدت فيما بعد ان المركيز اكثر مني تبصراً بالناس. او يمكنني ان اقول اكثر مني فهماً للحياة وخبرة بها».

وبدت الغيرة على وجه كينت:

«ومن هو ريك؟».

«انه عازف الغيتار في نادي هيدالغو».

وفي غيظ قال كينت:

«انه وسيم الى حد لا يستغرب عنه التلاعب».

«اجل».

ضحكت ايفين بعصبية وهي تقول ذلك، وتذكرت المرة الأخيرة التي التقت فيها مع ريك ثم كيف افترقا. ونظرت الى كينت الذي كان رفيقها الدائم خلال الأيام الأخيرة، وشعرت بالخوف فجأة. ربما اخذ الناس يتحدثون عنها. وربما اخذوا يقولون انه هو الرجل الذي امضت معه الليل وحدهما. ترى اذا بلغت الاشاعة مسامع كينت، فهل يتصرف مثلما تصرف ريك؟».

سألها وهو يبتسم:

«اجائعة انت؟ هل نطلب ذلك القريدس الكبير اللذيذ؟».

اومأت برأسها، ونادى الخادم. كان كينت لطيفاً وشعرت بالراحة معه، وكاليفورنيا تبعد اميالاً عديدة عن الجزيرة. وهذه المسافة الطويلة ستطمس ذكرى دون جوان الى ان تعود تتذكره زوجاً سعيداً مع راكيل ولا يعيش وحيداً.

جاء القريدس بلونه الوردي، ومعه بعض لفائف الخبز الاسباني، وبعض المقبلات. ولم تعد ايفين تشعر بالجوع ولكن بدا لها البحر كأنه قد فقد بعض بريقه كما ان تغريد الطيور بدا حزيناً نوعاً. هكذا تبدو الأشياء عندما تعرف انك انما تراها للمرة الأخيرة. واذا هي تركت الجزيرة يوم السبت مع كينت وامه، عندئذ يتحول هذا المكان في هذه اللحظة الى ذكريات.

بعد الغداء راحا يستريحان في كسل تحت نخلة ظليلة في الشاطئ». ولم يتحدثا كثيراً. وظن كينت ان هدوءها وحزنها هما مجرد تنفيس عن تعلقها بالجزيرة. كأنما تستعد لتوديعها وسماع كلمات الوداع من المركيز.

دعاها كينت لقضاء سهرة مهرجان الجمعة على ظهر اليخت، الذي جرى تزيينه بمصابيح ملونة لهذه المناسبة. وسألتها والدة كينت:

«هل تعتقدين ان السيد المركيز يوافق على حضور حفلنا الوداعي؟ لقد ... راكيل هذا الصباح وعلمت ان صحة والدها قد تحسنت بحيث يمكنها حضور الحفل. واظن ان دون جوان قد يسره مرافقتها لحضور حفلنا».

رأت ايفين انها لا يمكنها بعد ذلك تفادي لقاء كينت ووالدته بالوصي عليها، فقالت:

«لا اظن انه سيمانع اذا كانت راكيل ستحضر».

فقالت بتينا غرايسون:

«اذن، سأوجه اليه دعوة رسمية على الفور».

واسرعت الى غرفتها لتكتب الدعوة، وتطلعت ايفين الى مياه البحر الهادئة التي قد تحمل الغدر في اعماقها. سألها كينت:

«هل صحيح ما يقوله الناس، وهو ان راكيل الأنيقة تطمح الى ان تصبح المركيزة؟».

اجابته ايفين وهي لا تزال تتطلع الى البحر:

«الا تظن انها ستكون مركيزة رائعة، فهي جميلة ويمكنها ان تكون لطيفة للغاية، وان تكون سيدة القلعة المثالية والمضيفة الجذابة».

قال كينت ويده تلمس شعر ايفين:

«بالتأكيد ان الرجل يستحق ما هو اكثر من ذلك. وحتى الرجل المتحفظ يريد من يحبه بعاطفة؟».

«الا تعتقد ان راكيل عاطفية؟».

«مثل تمثال رخامي».

«كينت، انك لا تعرفها تماماً!».

«يا عزيزتي، انني اعرف طرازها. وهو طراز لا تنفرد به الجزر الاسبانية وحدها».

«هل عرفت فتيات كثيرات يا كينت؟».

اعترف ضاحكاً:

«بضع فتيات. معرفة الفتيات لعبة في اميركا، ولكنني مثل معظم الرجال اعرف طراز الفتاة التي ارغب في الاحتفاظ بها. هل سمعت بهذه العبارة المعروفة عن هيلين فتاة طروادة؟ هل هي جديرة بالاحتفاظ؟ ولم لا، انها لؤلؤة، الرجل يميز بين اللؤلؤة الحقيقية وغير الحقيقية. وراكيل من النوع الأخير وهي تفتقر الى وهج العاطفة».

كان كينت رشيقاً وهو يدير وجه ايفين نحوه تواجهه ويقول لها:

«لدي شيء اود ان اقدمه لك. لقد وجدته في دكان صغير في الساحة».

وادخل يده في جيبه ثم اخرج منه لفافة صغيرة من الورق، واضاف:

«هذه هدية لك، فقد كنت لي نعم الدليل اثناء التصوير طوال هذا الاسبوع».

وبعدما فك اللفافة رأت ايفين سواراً ذهبياً لامعاً تتدلى منه عدة طلاسم دقيقة تجلب الحظ: سلم صغير، حدوة حصان، قطة، تفاحة، قلب . . . نحو عشرة اشياء صغيرة جميلة تتدلى من السوار الذي ثبته في معصمها.

«اوه، كينت!».

«فاتنة، اليس كذلك؟».

«ما كان عليك ان تعطيها لي».

«ولم لا؟ ان الفتيات في اميركا يتوقعن اخذ تذكارات صغيرة على سبيل التقدير».

لمست باصبعها الاشياء الصغيرة التي تتدلى من السوار وابتسمت لأنها كانت هدية لا تقاوم وكانت في عيني كينت طيبة بادية، وقالت:

«ولكننا لسنا في اميركا. شكراً لك يا كينت. سأحب سوارك هذا على الدوام».

«اود ان يكون شعورك هذا بالنسبة الي ايضاً».

وتلاقت عيناه بعينيها ورأى فيها شوقاً صارخاً. وتمنى ان تنسى كل من عرفتهم ولا تذكر سواه، وان تنسى كل شيء الا تلك اللحظة.

«ايفين. . . ».

القت بوجهها تحت كتفه، واخذت تذوب في احلامها كأي فتاة تتناسى واقع حياتها وترخي العنان لأمانيها واحلامها.

تركا اليخت وذهبا الى الشاطىء في زورق صغير ورافقها كينت الى القلعة. كانت بعض الاضواء مضاءة، ولكن البرج البحري كان معتماً ولا يشع الا من انعكاس نور النجوم عليه.

امسك كينت بيدها كأنما يكره ان يتركها تدخل بيت الوصي وحدها ثم قال:

«المكان يبدو كئيباً بعض الشيء».

«في وقت ليل. اما في النهار فالجدران زاهية والباحات تجملها الزهور، ويبدو البرج البحري رومانسيا وهو يشق عنان السماء الزرقاء. في استطاعة عاشقة مثل رابونزل (حسناء ذات ضفيرة ذهبية من بطلات حكايات الاطفال) ان تتطلع من نوافذ البرج كي ترى حبيبها».

وسألها كينت مازحاً:

«وانت هل تطلعت من نوافذ برج دون جوان؟».

«انه يشتغل في غرفة مكتبه هناك ويحب عزلته، وانا لا اتطفل عليه الا اذا دعاني».

«ولكنك كنت معه في برجه!».

«مرة او مرتين. انه مكان مثير يطل على مناظر خلابة للجزيرة».

«انه يتربع في برجه كالأسد في عرينه، اليس كذلك؟».

«انه لا يزمجر جيئة وذهاباً. فهو رجل هادىء يحب العزلة. احياناً يتوجع من الم ساقه ولكنه لا يحب ان يعلم الناس بألمه. الرجال الاقوياء لا يحبون البوح بضعفهم. وهم في هذا اغبياء لأن الذي تكرهه النساء هو ضعف الشخصية».

امسك كينت بمعصمها وضغط على السوار فتألمت قليلاً:

«والى اي حد تحبين الرجل، هذا الشخص البيروني (نسبة الى الشاعر بيرون) الذي يعيش في قلعة ويعرج في مشيته ووجهه اسمر وسيم؟ لا تنسي يا ايفين ان للنبل مقتضياته اذا فكر رجل له مركزه ولقبه في الزواج!».

نزعت ايفين يدها من كينت وقالت:

«وهل تحسبني بلهاء رومانسية. في الروايات التافهة فقط يقع المركيز في حب مرافقة!».

«وانت تتحدث عن شعورك نحوه».

«وانا اشعر بالامتنان له».

ضحك كينت وقال:

«اظن انني الأبله. ويعود تفكيري هذا الى انك مختلفة تماماً عن الفتيات الاخريات اللواتي عرفتهن. واريد ان احتفظ بك على هذا النحو. ومع اني اريد ان اغزو قلبك فأنا لا احتمل التفكير في ان اي شخص آخر... اتفهمين؟».

«الرجال يمكنهم اكل كعكتهم، وعلى الفتيات البقاء متحفظات».

«هذه انانية من ناحية الرجل، ولكنه اذا وجد فتاة...».

«تريد الاطمئنان على ان تحفظي لم يذب بعد؟».

«ان صوتك بارد يا ايفين».

تلمست اصابعها مقبض باب الباحة وقالت:

«وهل تعجب لذلك؟ ارجوك يا كينت دعني اذهب الآن. غداً تنسى هذا كله في العيد».

«لماذا لا نتحدث قليلاً في القلعة بدعوة منك؟ اعدك بأن اكون عاقلاً».

شعرت في الحال ان كل عواطفها المختلطة قد انهكتها فقالت:

«انا متعبة».

همس قائلاً:

«يا لك من مسكينة. حقاً انك مضطربة. ولكن يا عزيزتي عليك ان تتخذي قرارك بشأن السبت. عليك ان تقرري».

«دعني اقرر غداً، اعدك بذلك».

«عليك ان تبحثي الأمر مع الوصي الاسباني، ايه؟».

«اعتقد انه يتوجب علي ذلك يا كينت».

«لا تتركيه يقنعك بعدم الذهاب معنا. في اي حال، كان سيرسلك الى مدريد».

سرت قشعريرة باردة في سلسلة ظهرها:

«حسناً، والآن طابت ليلتك يا كينت».

«طابت ليلتك يا ايفين».

واكتفى بالتسليم عليها بيده. وابتسم واضاف:

«الاسبان يقبلون انامل الفتاة عند التحية، فهل فعل دون جوان

ذلك؟».

«ولماذا؟».

«ربما لأن اسمه دون جوان».

«اضحكتك يا كينت ان المركيز يحب فتاة واحدة فقط، وانه سيحضر حفل الليلة لأن راكيل ستكون هناك».

«انك اكثر جاذبية منها».

«شكراً لك».

تركته بعد ذلك مودعة اياه ثانية، وتملصت منه ضاحكة ودخلت القلعة عبر باب الباحة.

«الى اللقاء غداً يا فتاة الحكاية الخرافية».

١٠ – موجة تضيئها النجوم

ارتسمت الابتسامة على شفتيها وهي تعبر القاعة متجهة الى طاولة صغيرة قديمة الطراز، ووضعت على صينية للرسائل بطاقة الدعوة التي كتبتها بتينا غرايسون للمركيز.

انه سيرى البطاقة عند عودته. لعله قد امضى المساء مع راكيل ووالدها، ولعلها ابلغته انها ستذهب الى حفل التوديع الذي يقيمه آل غرايسون على ظهر يختهما قبل الابحار يوم السبت. وهكذا يحضر الحفل مع راكيل ويتعرف الى كينت.

واسرع قلبها في الخفقان عند مرورها بالغرفة الذهبية في طريقها الى غرفة نومها. وتذكرت الموسيقى التي عزفها لها المركيز، وتذكرت الغضب الذي تأججت ناره في عينيه عندما امرها بألا تعامله كعاجز ضعيف. والليلة يعم الغرفة الذهبية الظلام كما ان البيانو صامت. والمركيز مع المرأة التي سيكون لها عما قريب كل الحق في ابقاء غرف القلعة على حالها او ادخال ما يحلو لها من تغييرات وفق ذوقها وشخصيتها. ولن يتدخل دون جوان. انه سيدلل المرأة التي ستجيء الى هنا وتبعده عن وحدته.

صعدت ايفين بسرعة الدرج المؤدي الى غرفتها. وهي تعرف ان عليها الليلة قبول عرض كينت والابحار معه هو وامه. في مدريد قد تسنح لها الفرصة بأن ترى دون جوان مع زوجته. اما في اميركا فلن تكون هناك فرصة كهذه بسبب بعد المسافة.

وقبل ان تأوي الى فراشها، فتحت خزانة ثيابها والقت نظرة اخرى على الثوب الذي استأجرته لمهرجان الغد. ان تنورته من المخمل القرمزي

اللون وفي نهاية ذيلها شريط اسود. اما القميص الصغير الأسود فهو ايضاً من المخمل وازراره فضية. واكمامه مشقوقة تكشف عن كشكشة البلوزة الصفراء اللون. وقد ابتاعت عدة سلاسل من المرجان والفضة تناسب هذا الثوب، وكذلك طرحة اسبانية مطرزة. وقد جربت ارتداء ذلك كله امام المرآة.

كان ضوء المصباح الموجود الى جوار المرآة ينعكس على السوار الذي ... كينت، والذي تتدلى منه القطع الصغيرة الدقيقة. لمست حدوة حصان لعلها تجلب لها الحظ. والتفاحة الدقيقة للاغواء. وتأملت القلب الذهبي الصغير وسرحت بخيالها. معظم الناس يتوقون الى ان يكونوا محبوبين. والحب بالنسبة الى كل منهم يعني شيئاً مختلفاً. انه يعني العاطفة او الأمن. والرفقة بدلاً من الوحدة. والتفاهم، ويداً تمسك بها في الظل او في الشمس.

تلاقت عينا ايفين بعينيها هي في المرآة، وقد انعكس فيهما ما تتوق اليه: انه الحب الذي تنشده. ولكنه من نوع جميل لم يسمع به احد انها كلمات الشاعر الانكليزي ييتس، وهي تعبر عما يتوق اليه قلب ايفين. حب ليس مثله آخر. حب يخفق له القلب من الخوف والنشوة. حب يسري في كيانها ويبقيها في السحاب دوماً. ضحكت وحدثت نفسها قائلة: ايفين، يا لك من بلهاء رومانسية. وابتعدت بسرعة عن المرآة. ولكن التوق لم يفارق عينيها.

كانت متدثرة بغطاء الفراش، وكان الوقت متأخراً عندما سمعت المركيز يعود في السيارة. وسمعت باب السيارة وهو يغلق. وتصورته وهو يعرج صاعداً الدرج الموصل الى قاعة القلعة، ثم. . . يتوقف الى جانب طاولة الرسائل، ويتناول بطاقة الدعوة ويتأملها لحظة قبل ان يفتحها. وبعدئذ يستند على عصاه الابنوسية ويقرأ البطاقة. انه لا يعرف آل غرايسون. ولكنه سيذهب الى الحفل لأن راكيل ستكون هناك. ولعله يذهب ايضاً ليشبع فضوله بالنسبة الى المرأة الاميركية وابنها. ولا بد انه قد علم الآن ان ايفين شوهدت هنا وهناك حول الجزيرة برفقة كينت غرايسون.

طلع فجر المهرجان مشرقاً مشمساً. وسمعت ايفين رنين الاجراس في الدير وفي الكنيسة بالميناء. انها دقات المهرجان تمتزج بالشمس الساطعة

على البحر. وفي جو يتأرجح بين المرح والجدية لبست ثوب المهرجان ونزلت الى باحة الحديقة لتناول الافطار وهي ترتديه. كانت قد ضفرت شعرها وسبكته كالتاج. وتوقفت امام مرآة في القاعة وتأملت صورتها في الثوب الجديد.

إطار المرآة القديمة الطراز جعلها تبدو كأنما تطلع من زمن بعيد... ثم ضغطت بيدها على صدرها من شدة خفقان قلبها عندما بانت في المرآة قامة المركيز واقفاً خلفها.

قال بصوته العميق:

«صباح الخير يا ايفين».

وشعرت بعينيه تغمرانها، وهو يتطلع الى كشكشة البلوزة الصفراء، والقميص المخملي، والتنورة الطويلة القرمزية. واخيراً قال في اعجاب:

«انت جذابة يا صغيرتي، اشبه بسيدة من الجزيرة. تعالي، نقطف لك قرنفلة تضعينها في شعرك».

قدم لها يده ليرافقها الى حديقة القلعة، وسرى في كيانها تيار من النشوة يجمع بين الدفء والبرودة في آن. واثناء سيرهما القت عليه نظرة خجولة. سألته:

«هل انت ذاهب الى المهرجان يا سيدي؟».

ابتسم بطريقته المهذبة وهو ينظر الى عينيها، وقال:

«طبعاً، يحسن بي ان استمتع بهذا المهرجان الخاص المسمى موكب آدم وحواء. انه مهرجان دخل الجزيرة منذ زمن طويل على يد عروس من اسلافي، كانت من اقليم غاليشيا (اسبانيا القديمة). وقد شعرت بالحنين الى موطنها والاشياء التي خلفتها وراءها، فأقنعت زوجها باحياء الموكب الذي كان يقام سنوياً في جبال غاليشيا، وها هو الآن يقام سنوياً في الجزيرة».

قالت ايفين وهما يهبطان الدرج الحجري العريض الى الحديقة وقد عبق الهواء بشذى القرنفل:

«ما اروع ذلك».

اخرج دون جوان مطواة صدفية من جيبه وقطع عنق زهرة لا تزال ندية. وقدمها الى ايفين بانحناءة صغيرة؛ فغمرها الحياء وارتعشت يدها قليلاً وهي تثبتها في شعرها. وقالت:

«انه يوم رائع للمهرجان».

«لقد اتخذت الترتيبات لكي نشاهد الموكب من شرفة قصر رئيس البلدية. انها تطل على الساحة مباشرة، والموكب سيتوقف هناك وكذلك فرقة الموسيقى والرقص».

قال دون جوان ذلك وهو يقودها للجلوس الى المائدة المعدة للافطار في باحة حديقة القلعة. وسرها ان تجلس اذ لم تعد قادرة على الوقوف.

«دون جوان...».

«نعم يا صغيرتي».

وصب عصير البرتقال من الابريق ووضع كوباً امامها. ارتشفت قليلاً من العصير وتمنت لو انه كان هذا الصباح اقل لطفاً واقل تأكداً من طاعتها عندما حدثها عن التنظيمات التي اعدها لحضور المهرجان.

«ولديك شيء تودين قوله يا ايفين؟».

«ما احلى القرنفل وشذاه هذا الصباح».

ثم ابتسمت بعصبية عندما اقبل الخادم لويس ووضع البيض المقلي على المائدة وطبقاً فيه قطع لحم صغيرة مقلية. ولمعت الشمس فوق ابريق القهوة، وتوترت مرة اخرى بعدما غادر لويس في سكون، ولم يعد هناك غير رنين الاجراس وطنين النحل. اخذت بيضة مقلية وبعض اللحم ومسحت قطعة خبز بالزبدة بدون ان تجرؤ على النظر الى المركيز. لماذا اصبح متعذراً عليها التحدث اليه؟ لماذا هذا التوتر؟ لقد كان لطيفاً بما فيه الكفاية ولكن على نحو من التباعد. ازداد خفقان قلبها، كأنما عرف انها آثرت ان تمضي يوم المهرجان مع كينت غرايسون.

قال وهو يمسح فمه بفوطة صغيرة وحذت ايفين حذوه وتلاقت عيناها بعينيه:

«ايفين يبدو انك عصبية بسببي. اذا قمت باجراءات اخرى بخصوص اليوم فأرجو ان تقولي ذلك. انا لن اقطع رأسك او احجزك هنا».

نظرت اليه في تعجب. وعندما رأته يبتسم ارادت فقط ان تدخل السرور الى قلبه، ولكن اذا هي ذهبت معه الى المهرجان ستكون راكيل هناك وستبدو راكيل فاتنة ومذهلة، ستكون هي السيدة الاسبانية الحقيقية ولن تعرف عيناه غيرها.

اعترفت بعصبية:
«لدي ترتيبات اخرى، اذ وعدت شخصاً اخر بقضاء يوم المهرجان معه».
«احد الشباب؟».
احتست قليلاً من القهوة ثم قالت:
«نعم. لعلك سمعت بآل غرايسون من راكيل. الأم الاميركية وابنها الشاب. انها لطيفان وقد اصبحت صديقتهما. آمل الا تمانع؟».
«وهما اللذان يقيمان حفلة على ظهر اليخت، ثم يبحران ظهر الغد. اليس كذلك؟».
اومأت برأسها وسألته:
«سيدي، هل تأذن لي بقضاء النهار مع كينت؟».
«برغم كل الاعتبارات يا صغيرتي، فقد امضيت معه كل أيام الاسبوع الماضي. واكره ان احرمه اليوم من رفقتك خاصة انه سيبحر غداً».
لمحت الابتسامة الساخرة التي ارتسمت على شفاهه وشعرت فجأة برغبة مؤلمة في ان تقول له انها ستغادر الجزيرة مع آل غرايسون. انه شيء عليها ان تصارحه به غداً، فلماذا لا يكون الآن؟ لعل ذلك يكدر عليه المهرجان. وربما يؤلمه قليلاً انها اختارت الذهاب بعيداً الى هذا الحد حتى لا يلتقيا ثانية.
كانت على وشك ان تبوح له عندما لمحته ينظر الى السوار الذي اعطاه اياها كينت، والذي آثرت ان تضعه اليوم في معصمها مع ثوب المهرجان لكي يجلب لها الحظ ويمنحها الشجاعة. امسك معصمها وقال:
«لم ار ذلك من قبل! هل هو حلية اشتريتها بنفسك؟».
«كينت اشتراه لي».
«فهمت».
واشتدت قبضته على معصمها حتى كادت ان تصرخ من الألم، ولمحت في عينيه غضباً خفياً. واضاف:
«تعرفت على هذا الشاب مدة تقل عن اسبوع ومع ذلك تقبلين منه هدية هي في نظر الاسبان علامة خطوبة».
«كينت اميركي يا سيدي. ولا اظنه يعرف الكثير عن عادات الاسبان».

«هل تعرفين يا ايفين ان الاسباني في هذه الجزيرة يعطي الفتاة التي يحبها سوار المعصم الرمزي لكي يعلم الجميع انها اصبحت له؟».
«لقد سمعت بأساور العبيد اذا كنت تعني سواراً منها».
دفعت بهذه الكلمات عبر مائدة الافطار، وهي تشعر بالايذاء والغضب والذعر، غير مكترثة بما قاله كل منهما للآخر لانها تستطيع ان تهرع الى كينت. وسيأخذها بعيداً ويكون طيباً معها.
ترك دون جوان قبضته عن معصمها ولكنه ظل ممسكاً به وقال بينما عيناه تنظران اليها في عمق:
«اظن ان سوار الخطوبة يعني الى حد ما قبول الزوجين بالعبودية. وهذا هو كل شيء عن الحب يا صغيرتي الرومانسية. المحب يقول: اريدك، والمرأة غير المستعدة لذلك انما لا تزال طفلة».
داعبت اصابعه القطع الصغيرة الدقيقة المتدلية من السوار وقال:
«هذا الاميركي الشاب له نظرة لما هو غير عادي وفاتن. هذه تفاحة حواء، وهذا السلم الى النجوم. اهو هدية الوداع ام تذكار الحب؟».
حررت يدها من قبضته ثم وقفت وقالت:
«الاميركي يعطي الفتاة خاتماً اذا كان يحبها. انا خارجة الآن يا سيدي. كينت سيكون في انتظاري».
سألها دون جوان وهو يصب فنجاناً من القهوة:
«واين ينتظرك يا ايفين؟».
«سنلتقي عند شجرة الكاتلبا قبالة الشاطىء الذي يرسو فيه اليخت».
«ارى انكما اخترتما مكان لقاء مناسب. نحن نسمي شجرة الكاتلبا بشجرة الوداع. استمتعي بالمهرجان يا صغيرتي. اظن انك ستحضرين ايضاً حفل التوديع في يخت الشاب؟».
«نعم يا سيدي. وهل ستكون في الحفل؟».
«ان السيدة غرايسون تكرمت ووجهت الي دعوة. نعم يا ايفين سأحضر الحفل. واعتقد ان علي مقابلة اصدقائك».
«آمل ان تنعم انت وراكيل بالمهرجان».
قالت ذلك ثم اسرعت لمقابلة كينت. الشمس دافئة وكانت تستطيع ان تشم زهرة القرنفل التي قطفها دون جوان لها. كانت تريد ان ترتدي

الطرحة الاسبانية ولكنها تركتها في غرفتها، وفضلت ان تسرع في الخروج من القلعة. هي تريد ان تكون مع كينت، الشخص غير المعقد. وتريد ان تنسى نفسها معه في المهرجان وان تضحك وتمرح والا تفكر في الغد.

كان ينتظرها، وهو يدخن سيكارة، تحت شجرة الكاتلبا التي تظلل المعبر المؤدي الى الشاطىء. والهواء يمتلىء برائحة البحر.

ركضت اليه كأنها تطير، والقى كينت بسيكارته وتعانقا، كانت فرحة ودمعت عيناها قليلاً وهي تقول:

«هل جعلتك تنتظر طويلاً؟».

«كنت مستعداً للانتظار اليوم كله، انت اشبه ببطلة في حكاية شعبية... كأنك رابونزل التي سعت الى الهرب من البرج لمقابلة حبيبها».

امسك يدها ونظر الى اعماق عينيها وسألها:

«اهذا وحده يومنا ام لنا الغد ايضاً وكل الأيام التالية؟».

«هيا نذهب الى المهرجان وننعم اولاً بكل ما في يومنا».

كانت لا تزال عاجزة عن ان تلزم نفسها بأية كلمات او وعود.

كانت شرفات البلدة تزدان بالزهور والسجاجيد الاسبانية الزاهية والشالات الحريرية، وتغص بعائلات في ثياب المهرجان. يضحكون ويعزفون الغيتار ويلقون القرنفل على المارة.

قوارب الصيد في الميناء تعلوها الزينات. والنساء والفتيات في ثياب زرقاء او قرمزية جذابة. وعقودهن واقراطهن الطويلة تلمع تحت اشعة الشمس كلما تحركت رؤوسهن واثارهن اعجاب الشبان. مراوح النساء المطرزة او الحريرية اشبه باجنحة في الهواء، والنسوة كالفراشات الى جانب الرجال في بدلاتهم القاتمة وقمصانهم المكشكشة وقبعاتهم العريضة السوداء. وكان بعضهم يلف خصره بوشاح قرمزي او ازرق.

اجراس الكنائس تعلو فوق مرح وضحكات جموع الناس في المهرجان. والصغار يجرون هنا وهناك يلقون بعقود صغيرة من الزهور على رؤوس الغواني اللواتي تم اختيارهن لموكب آدم وحواء. وكان الباعة في الشوارع يبيعون كعك اللوز وشراب اللوز المثلج.

توقفت ايفين ومرافقها بجانب احد الباعة وتناول كل منهما كوباً من الشراب المثلج، واخذا يراقبان رقصة الجيغ السريعة التقليدية على انغام

الطبول والدفوف ونوع غريب من القرب الموسيقية. وفي ركن آخر من الساحة كان فريق من الغجر يقدم رقصاته، والعربات القروية تأتي من التلال مزدانة بالزهور، تحمل المزيد من الناس في ثياب زاهية.

كان اشبه بمهرجان تاريخي من مهرجانات الماضي، وكانت ايفين مأخوذة وملهوفة لرؤية كل شيء. ورفعها كينت الى عتبة نافذة حجرية في احد بيوت الساحة بحيث يمكنها ان تشاهد على افضل نحو مشاهد الموكب المسرورة. وقد شعرت بدفء كتفه تحت يدها... وفي الوقت نفسه شعرت فجأة بدافع للنظر عالياً الى احدى شرفات قصر شامخ في الساحة.

هناك رأت دون جوان الى جانب راكيل ووالدها. كانت راكيل ترتدي ثوباً انيقاً ازرق وقد غطت شعرها الفاحم اللامع بطرحة بيضاء مطرزة تتلألأ ماساتها تحت الشمس. احست ايفين كأن قلبها يثب هلعاً. كانت راكيل تبدو اشبه بعروس وهناك قرنفلة صغيرة في عروة سترة المركيز.

سألها كينت:

«اهذا هو؟ اهذا هو الوصي المهيب الطويل القامة الواقف بجوار دونا راكيل المتألقة؟».

اومأت برأسها.

ونظر كينت الى دون جوان ثانية وقال:

«اجل، انه اصغر بكثير مما كنت اظن. انها هو وراكيل يؤلفان زوجين رائعين... ومن يكون الاسباني الآخر الواقف وراءها؟ انه يرتدي ثياب مصارع الثيران!».

تأملت ايفين الاسباني الذي كان يرتدي فعلاً ثياب المصارع. كان يضحك ويلوح للجمهور المحتشد تحت الشرفة، وتذكرت ايفين قول راكيل ذات مرة ان مصارع ثيران مشهوراً طلب يدها وانه يتردد على زيارة الجزيرة من حين الى آخر لكي يتقدم الى خطبتها.

وبينما كانت ايفين تراقب شرفة القصر، رأت دون جوان ينحني برأسه ويهمس بشيء الى راكيل. ابتسمت ونظرت الى المصارع ووضعت يداً نحيلة على كم دون جوان. ولمعت اشعة الشمس على ماسات السوار الذي يحيط بمعصم راكيل كنار ملتهبة فوق كم دون جوان القاتم.

ابتعدت ايفين بنظرها ناحية اخرى. في هذا الصباح بالذات قال لها

دون جوان على الافطار ان الرجل في الجزيرة لا يزال يعطي الفتاة التي يحبها سواراً لكي يعرف الجميع انه يريدها، وراكيل بالطبع انما تطلب سواراً ماسياً يناسبها، ودون جوان يعطي بسخاء حتماً لمن يقول لها وانا اريدك.

اقترب صوت فرقة موسيقية وعم الطنين الحشود المرتقبة. واقبل الموكب الى الساحة وحمل الآباء اطفالهم على اكتافهم حتى يمكنهم ان يلقوا بعقود الزهر. واخذت الفتيات يرقصن للشبان . . حواء تغري آدم.

لمست ايفين سوارها، ولكنها لم تقو على رفع بصرها الى كينت. هذا المهرجان هو احتفال للحب! الغواية تفوح في الهواء، وفي وسعها ان تستسلم الآن وتقول له خذني بعيداً عن الجزيرة.

كانت على وشك ان تتحدث واذا بصوت يصيح ويهلل لها: «بوهوا». انها بتينا غرايسون مع بعض الاصدقاء. قالت:

«يا اعزائي كنا نبحث عنكما في كل مكان، اليس هذا ممتعاً. يقولون اننا الآن على وشك ان نرى آدم وحواء!».

وصل الموكب وأمطر الجمهور الشخوص التي تمثل آدم وحواء ومن يحيط بهما من الراقصات والراقصين بالزهور. وكان الشيء الذي لفت انتباه ايفين ان الرجل الذي يمثل آدم لم يكن شاباً صغيراً وانما رجلاً ناضجاً. وكانت الفتاة التي تمثل حواء تحمل باقة زهور بيضاء وسلة برتقال (اهل البلدان الجنوبية يعتقدون ان البرتقالة هي فاكهة الغواية) وكان ثوبها الأبيض الطويل يحيط به زنار ذهبي على شكل افعى. وحول شعرها شريط حريري ابيض. ابتسمت لآدم وقدمت له البرتقالة من سلتها. هز آدم رأسه بشكل حاسم، وألقى ابتسامة على جمهور المحتشدين وضحك الجميع.

وعندما نظرت ايفين ثانية الى شرفة القصر، كان رئيس البلدية وجماعته قد تركوا الشرفة وعادوا الى داخل القصر. وبعد مرور الموكب بدأ الناس يتفرقون جماعات. وغادرت ايفين مع آل غرايسون واصدقائهم. ومر نهار المهرجان كالحلم بالنسبة لها.

لقد شاركت في الضحك والرقص واكلت الفاكهة وتركت المرح يغمرها كموجة من النسيان. ومرت الساعات بسرعة، ولما بدأت الأضواء الملونة في الظهور على امتداد الميناء، قال آل غرايسون ان الوقت قد حان للعودة الى

اليخت.

«ها هو الدلفين الأزرق!».

قال كينت ذلك وهو يشير الى اليخت عندما نزلوا الدرج المؤدي الى الميناء. كانت حبال المصابيح الملونة مضاءة واليخت راسياً على المياه المعتمة كسفينة خيالية.

وشعرت ايفين لحظة خاطفة بجمال منظره، ثم ادركت على الفور انها لا تستطيع مواجهة الذهاب الى ظهر اليخت. لم تعد تستطيع ان تواجه المزيد من الناس او الموسيقى او الطعام او اي شيء آخر من مرحها المزيف.

«آسفة يا كينت!».

قالت ذلك وسحبت ذراعها من ذراعه وشعرت ان سوارها قد سقط من معصمها. اندفعت مذعورة تصعد الدرجات وتشق طريقها وسط زحمة المتجمعين في الميناء لمشاهدة الألعاب النارية. سمعت كينت يناديها ولكنها تابعت جريها. لم تنظر الى الوراء ولم تتوقف حتى عندما ارتطم ذراعها بجدار الميناء. اخذت تسرع وتعض شفتها بألم وتشعر بخلو معصمها من السوار. لم تعد تسمع صوت كينت وكانت تأمل ان يسامحها لتصرفها غير السليم. يجب ان تكون وحيدة! ان التفكير في الاضطرار الى الابتسام والتظاهر بالمرح لثلاث او اربع ساعات اخرى كان اكثر مما تستطيع تحمله. ارادت ان تشعر بنسيم البحر يداعب وجهها ولكن ليس على ظهر يخت مزدحم بالمدعوين. ارادت ان تستمع الى همس الأمواج وان تجد بعض الراحة لقلبها الذي كان يتوجع طوال النهار تحت قناع التظاهر بالبهجة.

اخيراً توقفت وهي تلهث ووجدت نفسها وحيدة على الشاطىء. كانت اضواء البلدة على مسافة بعيدة خلفها، وتبدو كسلسلة من الماس. وسرعان ما بدأ عرض الألعاب النارية في السماء ورأت ان تراقبها من هذا الموقع.

اخذت نسمات البحر تداعب شعرها وتنعشها. وكانت النجوم ساطعة جداً وتلقي بظل فضي على البحر، وجمال الليل يعزف على اوتار قلبها، وتقدمت الى حافة ماء البحر المندفع بموجات واهية ويلقي باحجار واصداف صغيرة.

وفجأة تاقت الى الشعور ببرودة الماء على قدميها فخلعت حذاءها وجوربها وتخطت موجة متكسرة على الشاطىء تضيئها النجوم. كان الماء

يغمر قدميها العاريتين فشعرت باسترخاء اعصابها. اتراها جنت لتفضل هذا على حفل التوديع وما فيه من رقص وموسيقى وكل ما لذ وطاب؟

وحدها على الشاطىء، وكان في مقدورها ان تكون محط الانظار على ظهر اليخت بصحبة شاب ازرق العينين، سيكون متكدراً لأنها هربت منه، وسيغضب دون جوان لأنها لن تكون حاضرة في الحفل وتسمع تحيات المقربين له بالسعادة مع راكيل.

تحسست باصبعها الكدمة التي اصابتها في ذراعها من جراء ارتطامها بجدار الميناء، ووقفت تائهة وسط افكارها بينما الأمواج تدغدغ كاحليها. كان ظهرها قبالة الشاطىء الصخري الذي ينحدر صعوداً الى الطريق العام الممتد من البلدة والذي يشتد انحداره عند قطعه للتلال. لم تكن السيارات التي تعبر هذا الطريق كثيرة ولكن ايفين لم تسمع السيارة التي توقفت عند الجانب الآخر من الطريق. خفتت الاضواء. وهبط صاحبها ثم اخذ يعبر الطريق. ان انحدار الطريق هو الذي مكنه من ان يشرف على الشاطىء ويرى الفتاة الواقفة عارية القدمين عند الامواج المتكسرة. كان شعرها الطويل يتطاير مع الريح وكانت وحيدة وشبه تائهة.

كل شيء كان هادئاً، ثم سمعت صوتاً يناديها:

«ايفين اهذا انت يا صغيرتي؟».

سمعت اسمها كأنها في حلم وكأن البحر هو الذي ناداها. واستدارت ببطء واذا في اعلى الشاطىء يقف شخص اسمر الوجه طويل القامة. لا احد غيره يزيد من سرعة دقات قلبها ولا احد غيره يسيطر عليها بنظرة، ويغريها بدون كلمات، ويتعرف على احتياجاتها قبل ان تدركها هي ذاتها.

«دون جوان!».

سمعت نقرات عصاه على الصخور وادركت انه يهبط اليها. لم يكن الشاطىء مستوياً، وربما يؤذي ذلك ساقه، وفجأة أخذت تركض نحوه عبر الرمال وتلاقيا بقلق متزايد، وتعانقا وغابا عن الوجود لحظة.

«اهذا انت!».

ضحكت ضحكة قوية وقالت:

«من تظن تكون غير صغيرتك المجنونة؟».

«هكذا ظننت! من غير ايفين تلهو بقدميها في الماء وحدها، وشعرها

يتطاير مع الريح، ولا تهتم بالحفلات وتثير قلق وصيها؟».

نظرت الى عينيه فاذا فيهما بريق عاطفي:

«كنت آمل الا تقلق علي. ظننت انك مشغول بأشياء اخرى هذه الليلة بالذات. ولماذا تعيرني اي اهتمام؟».

قال مازحاً:

«ولماذا حقاً؟». ثم رفع شعرها من فوق عينيها، وامسك بيدها ووجدها باردة فقال:

«هل تشعرين بالبرد؟ لا بد ان الأمر كذلك فقدماك عاريتان. اين حذاؤك وجواربك؟».

اشارت الى الشاطىء:

«في مكان ما. الن تغضب راكيل لأنك تركت الحفلة وجئت تبحث عني؟».

«ولماذا تغضب راكيل؟».

قال ذلك ثم ابعد شعرها الطويل عن عنقها ورفع وجهها لكي تتطلع اليه.

«كان في معصمها سوار الخطبة. رأيتها معك في المهرجان. وكانت تبدو كالعروس».

«عما قريب تكون عروساً».

سرت رعشة في كيان ايفين. وابتعدت عنه قليلاً، فسألها:

«هل دبت الغيرة فيك لسماعك ان راكيل ستتزوج؟ وهل تتمنين ان تكوني محلها؟».

«كلا...».

وفجأة انقلب بريق عينيه الى الضحك وقال:

«تقولين كلا يا قنفذة البحر الصغيرة، لأن راكيل ستتزوج مصارع ثيران شاباً ظل يطاردها بالحاح حتى انها في النهاية لم تستطع مقاومته. الم اقل لك ان الاسباني يقول انا اريدك؟ واية امرأة يمكنها مقاومة من يريدها؟ ايمكنك انت؟».

سألته:

«ومن يريدني؟».

وشعرت انها اصبحت ضعيفة امامه كالماء. المصارع اذن هو الذي ستتزوجه راكيل؟ وليس المركيز دون جوان! ها هو هنا امامها يغيظها... كأنه يعلم بشعورها نحوه، والتهب غضبها وقالت:

«لقد هربت من كينت امام اصدقائه، كذلك عرف ريك اننا امضينا معاً ليلة الضباب سوياً... او هو على الأقل عرف انني كنت ليلتها مع رجل».

«الم تقولي له انني كنت ذلك الرجل؟».

«كيف استطيع ذلك؟ عندئذ تتوقع الجزيرة كلها زواجك مني».

«وانت الا تحبين هذا... ان تكوني زوجتي؟».

«دون جوان...».

وفجأة لم تعد تتحمل المزيد.

«اريد ان ارحل، ارجوك دعني ارحل!».

«والى اين ترحلين؟».

«الى مدريد او اميركا كمرافقة للسيدة غرايسون».

«انها امرأة لطيفة، ولكن بعد فترة سيرهقك العمل، وربما تنتابها الغيرة قليلاً كلما تطلع ابنها اليك، وقد تصر في النهاية على ان تربطي شعرك، وتخفي عنه اغراء عينيك العسليتين بوضع نظارة. كلا! هذا لن يحدث ما دمت حياً! امكثي معي يا ايفين. تذكري انني تعهدت ان اصونك واحفظك امرأة شريفة؟».

«ولكن لا احد يعرف... انك انت الذي كنت معي ليلة الكوخ».

«واذا لم توافقي هنا الآن على زواجنا، فسأعمل على ان تعرف الجزيرة كلها».

«ولكن لماذا؟».

«لانك بريئة للغاية. ولانني اريدك. ولانك بالنسبة لي فتنة العالم كله. احب وجهك الاغريقي واساليبك الصغيرة في التقرب مني ثم الابتعاد عني. في اول الأمر حدثت نفسي بأن لا حق لي فيك لاني اكبر منك سناً، ولأن لي هذه الساق التي تجعلني اعرج، ولكن اذا لم آخذك، فإنك ستعودين الى عبودية امرأة متسلطة، ولأنه من الأفضل بكثير يا صغيرتي ان يسيطر عليك رجل يحبك كثيراً الى حد يحيره».

همست:

«حقاً؟».

«[illegible]ت يا ايفين. ويمكنني حتى ان احتمل عدم حبك فترة، ولكني مصمم على ان اجعلك تحبيني. اريدك. اريدك رفيقة حياتي. وسأصونك واعتز بك على الدوام. وهذه الكلمات بالنسبة للاسباني اشياء ثابتة».

«ولكن المركيز لا يتزوج من خادمة».

«[illegible] المركيز يفعل تماماً ما يريده. انك خلقت للعيش في قلعة، يا حبيبتي، وقد انتظرتك القلعة وانا ايضاً زمناً طويلاً لكي تأتي الى هنا وتضفي عليها نضارة شبابك وضحكك. ايفين، هل تحكمين علي بحياة الوحدة ثانية؟».

«اوه، كلا!».

عانقته طويلاً واضافت:

«اذا كنت تريدني فأنا لك. واذا حدث في مرات ان ابتعدت عنك فذلك لأني كنت اريد كثيراً الاقتراب منك».

داعب شعرها بأصابعه القوية وقال:

«هل اعتقدت ان راكيل على وشك ان تكون عروسي؟».

«كان يبدو ان بينكما اشياء كثيرة مشتركة».

«اشياء كثيرة، ولكن لم يكن الحب بينها».

رفع وجهها وابتسم بشكل اذاب قلبها وقال:

«تعالي يا صغيرتي، نذهب الى البيت، الى قلعتنا؟».

اومأت برأسها، ولم تفه بكلمة فقلبها يفيض بالحب. وزاد من سرورها ان كينت سيبحر غداً بدونها، تاركاً اياها حيث يريد قلبها، وحيث يتوق قلبها الى البقاء على الدوام... في بيتها... في قلعة حبيبها دون جوان.